مجموعة قصصية

من غابات الأسمنت

أحمد المؤذّن

سرديات

الكتاب : من غـابات الأســمنــت / مـجموعــة قـصصيــة.

المؤلف : أحـــمَـــد الـمُـــؤذّن ، مملكة البحرين

المراجـعة اللغـوية : أ. عـلي عـبد الوهـاب البـقالـي

تصمـيم الغلاف والإخراج الداخـلي: عزالدين امحيندات

النـاشـر: دار أسـرُد للنشر الالكتروني.

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: د.ع. ٤٧٤٢. / ٢٠٠٦م

رقم الناشر الدولي: ٩٩٩٠١٤٥١٦٤

الطبعة الثانية ٢٠٢٤

تم نشر هذا الكتاب في طبعته الأولى من دار فراديس للنشر والتوزيع/ ٢٠٠٦ البحرين.

الإهـــــــــــداء

الأصدقاء .. زيـــد / جـــلال / فاضـــل / عيـــســـى / مصـــطفى / نـــادر / طـــاهر / زهـــــير ، دعمكـم السـخي لمسـيرتي ككاتـب يجعـلني فخــور بكـم و بنبـض أخوتكم الصادقـة التـي تُـعطـر روحـي بالفرح .

بكـل حُـــب أهـــديكم كتاب « مـــن غابـات الأسمـنـت « ولكم حريـة التجوال في عوالمـه أو .. « فـض بـكارة الحلـم المشتهـى « الـذي يداعـب خيالاتكـم ، خـذوه مـن حقائبـي بمثابـة تذكـرة دخـول مفتوحـة الامتيـازات بـلا مقابـل ؛ و هيـا كونوا سـعداء في غابـات الأسـمنت ، فـلا خـوف عـلى قلوبكـم الطيبـة التـي ينمـو فيهـا اخـضرار المحبة والخـــير ، لـــكم أطـيب تحيــاتي .

أحـــمَـــد الـــمُـــؤذّن

٢٢ أغـــســـطس ٢٠٢٣ م - مملكـــة البحـــرين

حُفرة

سيحملون نعشي و يبدون دموعهم الكاذبة مثل انفجارات أحزانهم ، زيف وجوهٍ آثمة تلملم عريها المفضوح الذي لا يعرفهُ أحدٌ سواي و ربي . أريد مفارقة مدينتكم و ستكون محطتي الأخيرة في أقاصي وجعي المزمن ، ميراث القهر الذي يعصر روحي ، لتكن نهايتي محرقة ، حفرة ، حسرة أتجرع كؤوس مرارتها و ليتني أرتاح !

نعم أريدها الآن ، لتكن حفرة ، هذا معولي ينتظر فوق كتفيّ المتهاويين ، أضواء الشارع تتسرب إلى أرض المقبرة تنتظر هي الأخرى لقمة الجسد و كأني أرَ «عزرائيل « محملا بألواح الموتى المنتظرين اقدارهم و هو هنا يقف بين السماء و الأرض يمارس هوايته في عد شواهد القبور ، يتأكد من جرد حسابات الآخرة ، القبور أمامه مثل ثآليل في ظلام غير مكتمل . صرت أمشي هنا و أتخير موضع قبري !

أضحك و أضحك كي أهرب « مني « فهنا حفيرتي ، هنا حتفي الآتي و سأهرب من مدينتكم ، من برودكم الثلجي ، مثلي لا يريد البقاء كي لا يتعذب من نكرانكم ، سأفر منكم قبل أن يتصحر هذا القلب و يغدو قاسيًا لا تبث فيه نداوة المطر رحمة الأطمئنان.

هو موتي ، هو جسدي سأدفع به مثل عربةٍ متهالكةٍ لا يحتاجها أحد . هي ذي لحظة الفرج و مغادرة نفق حزني ، معولي يغوص في نعومة التراب الهش ، سأمضي إلى نهايات الخيبة بلا إياب . ألا يكفيني فساد ما حولي ؟ ما عُدت أحتمل الغرفة فاسدة الهواء ، تعمدوا ابقاء نافذتها مغلقة ، صرتُ مسجونًا بين جدرانها الأربعة ، تحاصرني مجاملاتهم الكاذبة بالشفاء الموعود .

أكاذيب رخيصة تتلون كما أصناف الأدوية التي تؤجل موتي الزاحف .. آه ه ه

من أكاذيبهم المراوغة التي تواطؤوا عليها ، إلهي لا تتركني في حومة العذاب أسقط من شاهق ألمي، أنفاسي طوع قدرتك، وأنا لستُ سوى عُنق عصفورٍ، هيا شدد قبضتك القدرية حول هشاشته ، أستل روحه المعذبة كي يرتاح !

فقط لو أرتاح ، لكل واحدٍ منهم قلبٌ من أسمنت ، ما عُدت أطيق رؤيتهم ، الأحسن أن أحفر و أحفر سأنبش وجه هذا التراب برؤوس أصابعي التي حملت أحلامهم الصغيرة ذات عمرٍ مضى . ماذا أكون عندهم ؟ أنا نفاية يزدردها فم الحياة . أحفر بحماس ، تعب و عرق و هذه أنفاسي تلهث ، قريبًا سأسمع للحفرة صوتًا ما يرحب بي منطلقًا من أحشائها يسحبني من خرابي .

لا معنى لهذه الدنيا الفانية التي نلهث على رخامها ، أريد مفارقة دنياكم ، زهدتُ مدينتكم الأسمنتية المختنقة بدخان الحضارة و العولمة ، ما عادت لي رغبة العيش حيث أبتلع سموم الأدوية بلا طائل ، كما أشاهد وجوهكم لا يتحرك فيها شعورٌ بالصدق و الرحمة ، أربعة وجوهٍ صارت رديفة لرائحة إبليس ، حولها لأربعة نصالٍ في صدري !

أما كُنت ذات يوم أفاخر بغبائي على جاري أبا زينب ، تمسكنت على حاله ، ففي رقبته تسع بنات . أخبرته بأن « الولد « كنز أبيه و حامل لواء العهد من بعده وقت الشدة ، فهو الذخر و السند ، أربعة أولاد سيشتد عودهم و يعتنون بي ما كنت أدري بقدري ، سيرد لي تلك الصفعة و لو بعد حين ، اكتفى الرجل يومئذ بجملة هادئة لم تبرح ذاكرتي .. « يا جاري ، إن كنت تتمسكن على حالي ، فأنا لستُ بمسكين وأشكر ربي على نعمه ، وإن كنت تسخر مني فربي موجود « .

يا حفرة الموت ترفقي برغبتي و ساعديني ، الرغبة الأخيرة وحسب لعجوزٍ هالك آن وقت رحيله .. فقط أريد أن أرتاح . المعول يتباطأ في يدي و كأنه عبء لا أطيق حمله ، الصبح ربما يتهيأ كي تبدأ رحلة تجدد الحياة ، فإن كانت في دمائهم قطرةُ حياء فسوف يبحثون عني .

لا أريدُ منهم شيء ، سيشملهم العار و ها أنا اللحظة نقي من خطاياهم كما

ولدتني أمي ، لستُ أطمع في شفقتهم التي تلوث صفاء قلبي . إن الله تعالى يغنيني عنهم ، الظلام آخذٌ في الانحسار ، لو يتوقف رجفان قلبي القلق و أهوي في حفرتي هنا ثم أرتاح!

سأنجز ما بدأته ، أنا آتٍ و ها عرقي يتصبب ، لتهديني حتفي يا إلهي رحمةً منك ، لن أستسلم للتعب و سأحفرها كي أبلغ مرادي ثم أرمي خلف ظهري شهوة الأشياء . بي رغبة متوقدة و شديدة للهرب من كل هذا ، قد يبحثون عني الآن ! لا أريدهم و لا يفرحن قلبي بهم عندما يحاصروني في شباك نفاقهم الكاذب ، أيحسبوني عجوزًا خرفًا؟! عندما كثرت الاشارات التي يتبادلونها خفت نواياهم ، ليلتها قررت الأحتيال على عادل الذي يعطيني أدويتي وفعلت ، مثلتُ دوري حيثُ أقتنعوا به .

جعفر كان يسأل .. (عادل أنت متأكد أن والدك نام ؟!) . كنت أدس الحبوب التي يعطينيها أسفل وسادتي بينما أشتت انتباهه نحو ساعة المنبه إن كانت متوقفة أم لا ؟ آخذ تلك الحبوب ولا أعرف ، و ها هو الآن يتكلم .. (مع الدواء حبوب منومة ، والدك الآن في سابع نومه ، و الله لو ينام ولا يستيقظ أحسن له ! الطبيب يقول إن حالته متأخرة ولا أمل في شفائه) !

حسين بعد صمته فجر قنبلة زلزلت كياني .. (ولا واحد منكم يفهم الانجليزية ، أنا تكلمت مع الدكتور أول أمس ، جسم والدنا أنتشر فيه ال.. الخبيث ، لنتركه لمصيره ، لا نستطيع أن نعمل شيء ، ثم أنني أرفض فكرة العلاج في الخارج) .

وأنت يا خليل ما وراء حيرتك ؟ اخوتك ينتظرون مثلي قرارك يا كبيرهم الذي علمهم الجحود فما أمضى طعنتك القاتلة التي باغتتني بلا رحمة ..

(العلاج في الخارج يا حسين يعني فلوس و تكلفة ، لي صديق أقترض لأجل علاج والدته مبلغ فلكي ، أنتكست حالتها و ماتت و هو تورط في قرض علاجها بلا فائدة)!

ما اكبرها عند الله ، هكذا بسهولة أصير كمثل سقط المتاع ، لا أجد من يكترث

بي أو يحن قلبه عليّ ، عليكم اللعـ... لستُ أصدق ما أراهُ منكم ؟! حقًا أنتم شياطين تلبس أقنعة البشر ، أما أفنيت عمري و سلخت لكم من جلدي و تحملت البرد و الحر و جور الدنيا كي تنعموا بلقمة طيبة و ملابس نظيفة فيكون هذا جزائي منكم ؟!

ربما بالغت في مساحة ظني المتوهم ، حفرة تافهة كهذه لا تتسع لي كي أهرب من هذه الدنيا و.. « الله أكبر ، الله أكبر « ما ألطفك يا إلهي ، هذا أذان صلاة الصبح ، نزل بردا و سلاما على روحي ، تحررتُ من قضبان قلقي ثم نفضتُ عن نفسي وساوس إبليس الرجيم و ها ارتعاشات هواجسي تبرد في ندى الفجر و نداء الصلاة يغسل ليلة البارحة مما علق بها من وجع .

بردت تلك الرياح الساخنة التي أجتاحت أفكاري ، ستار الضباب الذي سيطر عليّ ها هو ينجلي عني ، حدقت في يدري وبهذا المعول و بدأتُ أجتاز مساحة وجعي بينما أذان صلاة الصبح ينير بصيرتي ، ردمت الحفرة ثم رددتها إلى جسد المقبرة مستغفرا ربي ، الآن أنا أعرف تمامًا ماذا أفعل .

ذات صباح

ستارة نصف مفتوحة، شعاع الشمس يتسلل مخترقًا لوح الزجاج البارد فيستيقظ نوم الأشياء الساكنة بالنسبة إليكِ . مزهرية تحتضن وردة على وشك الذبول، يغسلها الشعاع و هو يمر في طريقه على اطار بلاستيكي مُذهب الزوايا، يكتنز بين أضلعه الأربعة، زوجًا حنونًا مع ثلاثة أولاد و أنتِ هنا وسط الصورة يحتويكِ مقعد أنيق و في حضنكِ طفلة بريئة الحلم تصفق .

هذا الضوء غير مرغوب في لحظات تسلله الآن، لابد من النهوض . ربما هي السادسة ولكن ساعة المنبه متوقفة . تركتِ وسادتك، لا مناص من اغلاق الستارة ، هذا الشعاع يعاند ظلمة الحجرة في يوم اجازة . تتذكرين بأنكِ طلبتِ منه شراء ستارة بجهاز تحكم عن بُعد .. رفض الفكرة من الأساس على اعتبار أنها رفاهية استهلاكية تبرر المزيد من الكسل .

أوف، ترك دفء الفراش من أجل اغلاق الستارة أمر مزعج ، صحيح أن نور الشمس في هذا اليوم البارد من يناير يبعث الدفء في الروح ولكن .. ها أنتِ تزيحين قماش الستارة، تتثائبين فتصطادك مرآة التسريحة على غفلة منكِ! وقوفكِ عندها هذه اللحظة ليس ككل مرة واثقة الابتسامة حيث ترسمين شفتيكِ بعناية أو تضعين بودرة أساس على خديكِ ثم تتركين ضلال الأسود الدخاني على جفنيكِ كي ما تكتسين ببعض الغموض .

هي لحظة متفردة من ارتياب النفس حين تؤخذ على حين غرة، مفاجأة لا قبل لكِ بها تنهش من طمأنينة صباحكِ وأنتِ واقفة. بدأت أصابعكِ تتحس قلق وجهٍ لا تعرفينه، وجه امرأةٍ أخرى ربما لكنه ليس وجهكِ! ذابل، ببعض الخطوط الدقيقة أسفل العينين و على طرفيّ شفتيكِ . كيف تتحاشين وقاحة السؤال وهي تسخر منكِ؟ مرآة لا تعرف المجاملة تخبركِ عن ذبول الأربعين

يزحف بصمت!

هذا السطح الفضي لا يعرف الكذب، لكن مستحضرات الزينة هي المخادعة بترويجها الاعلاني المراوغ يترافق وابتسامات فتيات مكتنزات بالصحة و الجمال و الفتنة عبر كل القنوات الفضائية .

هذا القلق يطل من نسيان الزمن، هل هذا وجهكِ حقاً ؟ وجه مكدود عليه آثار تعب الأعوام الماضية، كم يشبه وجه تلك العاملة (الآسيوية) التي تقوم بغسل سلم العمارة من الدور السادس نزولا إلى الأرض، مسكينة و صامته و كئيبة .

تختلط احاسيسك الآن، أحزان الأيام الماضية ها بدأت تنجلي عنها غلالة الغموض و تستيقظ واضحة المعالم، أنتِ تكبرين في السن ولا مناص من الاعتراف بهذا، كيف يتوه عنك التفسير ؟ هو أمر بديهي في نهاية الأمر، كلنا ندفع فواتير هذا العمر بمختلف مراحله. تنظرين لشهادة التخرج المصلوبة على الجدار، الأرقام تذكركِ بما مضى من العمر، هذا دليل دامغ ، الهروب لا يجدي أشحتِ بوجهكِ عن الشهادة، حدقتِ في المرآة ثانية، الخطوط الدقيقة عندها الكثير لتقوله وهي تتوزع على سطح وجهك ولن تهربي من صراحتها الزمنية. أنتِ زوجة تحترف أمومة ثلاثة أطفال في جنةٍ صغيرة هي هذه الشقة المتواضعة الدافئة بحب رجلٍ ، ألا تزالين تعتقدين بأنه لم يلاحظ هذه الخطوط ؟ هل حقًا قلبهُ يرقص في بستان حبكِ كما الأيام الخوالي ؟

تعاودين تفقد وجهكِ المسكين، يغطيك دخان الأعوام التي أحترقت فكيف لا يكون الرماد وجبة الريح التي لا تهادن ؟! هذه تلاوين الخيبة تغزو الروح ما أصعبها هذه اللحظات . مشحونة بالضيق نفسكِ، تشعرين بالهزيمة ، ربما ستحطمين المرآة، اتفعلين هذا ؟ كل هذه الأسئلة الغبية و الأفكار المشاكسة التي تغزوكِ سوف تتلاشى بعد حين ، ربما هي مجرد هلوسات لعينة منشؤها تغيرات هرمونية مضطربة .

حمام الصباح كفيلٌ بالتخلص من كل هذه الشحنات السلبية ، خربشات تافهة

و سوف تتسرب من تلقاء نفسها. تدخلين الحمام ، تعمل يديك في تعرية هذا الجسد ، يقف تحت رذاذ المرش، روحكِ يتجدد صحوها ثم تنتعش لحظات لكن .. تصطادكِ على غفلة منكِ مرآة الحمام وكأنما تواطأت مع اختها كي تستمر عذابات الأسئلة و وجع الذات . هل ترين جسدكِ كيف أصبح ؟ أين ذهبت تلك الرشاقة الرياضية ؟

مرآة بشعة ، لم يأخذ رأيك بشأنها ، تكرهينها . ليته لم يشتريها أصلا ، كيف تجرؤ على التطفل و تقتحم خصوصيتك بهذا الشكل الفض ، تسديك سخريتها المرة غير مكترثة بكِ ؟ تزيدين من زخم الماء كي يندفع أكثر ، لتبتعد أيها القلق الآن .. هو ذا صدرك تتجمع فوقه قطرات الماء المنهمر و رغوة الصابون تزيد شعورك بالأمان ثم هذه الراحة التي تختلط مع رائحة العطر الفرنسي ، احساس جميل ، هذا الرجل يعرف كيف تكون حبيبة قلبه في مواسم فرحها. صدرك يمتلىء برغوة الصابون، هو أسير يديكِ فيه شيءٌ من بقايا جنون الأمس .

يحبك و تعرفين هذا، لا تزالين خيرات جنته أنى أشتهى ثمرها يقطف ويأكل لكنه على الدوام صامت، الصمت مدعاة قلق وأسئلة تفرخ بعضها في عتمة الطريق ، يا للأيام الماضية كم أساءت إلى نفسك وتمادت في قسوتها. تبحثين عن اهتمامه، شارد الذهن ما عساه يفكر؟ الأسبوع الفائت فقط دخل الشقة و في يده مجلة ممتلئة بغوايات الجميلات، في العادة هو لا يقرأ ولكنه ظل يتصفح تلك المجلة و أنتِ تحترقين في أتون غيرتك. كم سيكون من الغباء سحب المجلة من يده و تمزيقها كما تفعل الصديقات المراهقات عند المقارنة أيهما أجمل وهُن يتصفحن مجلات الأزياء.

هذا الفعل لا تلجأ له غير من تتزعزع ثقتها بنفسها، هي تعرفه طوال الأعوام الماضية و تعرف أن.. ما بال أنثى غلاف الصابون ذات النظرة المغرورة قد أنتصبت واقفة خلفها هكذا فجأة ؟! الغلاف قمتِ بتمزيقه ليلة البارحة فكيف جاءت هذه الجنية هنا ثانية حتى تتمختر بجمالها أمامك بكل وقاحتها

و تضحك؟!

وجهها عارٍ من الحياء تحدق في المرآة، تلاعب شعرها، شريرة تتحداك فلا تضاهين جمالها أو نضارة بشرتها كما بياض السكر، تستعرض قوامها الرشيق و ترقص فتشعل غضبك أكثر! تحاولين الوصول إليها لكن طيفها كما الماء لا تقبضين منه شيء و ها ضحكها يستمر في استفزازكِ. تهزين المرآة، من منهما صار يغضبك أكثر، هي أم المرآة ؟ أم خيبة الحزن يرتسم في كآبة هذا الوجه، هو ليس وجهكِ كما جمدهُ ضوء الكاميرا في الصور.

أنتِ تهزين المرآة بعنف مهزومة الروح، زوجك الآن يفكر في امرأة أخرى مثل أي رجل ولا عزاء لك لو أتخذ زوجة ثانية يتوجها أميرة على مملكته. تهزين، تهزين و هي تضحك بغرور ترقص على جراحك ثم..تحركت من مكانها ثم سقطت أرضًا، فرت صيحات فزعك ، اخيرًا تلاشى شبحها من أمامك وهذه صيحاته مفزوعة يطرق باب الحمام ، طرقات متعجلة ، متوترة .. (هناء حبيبتي أنتِ بخير؟ هناء أجيبيني) .

الآن ها باب الحمام مفتوح كما جروحكِ تنتظر اسعافات عطفه، يحتويكِ بذراعيه و على وجهه يختلط الخوف مستفسرًا .. (أنتِ بخير حبيبتي ؟) فتشرق من وجهك ابتسامة و ما أجمل اللحظات فتحدقين للمرآة وقد تحولت لشظايا نجمية ، تسألينه : (لم أسمع هذه الكلمة من مدة طويلة!) .

أعتصرك أكثر إلى صدره .. (تعرفين هناء ، شكلك رائع وأنتِ مبللة تثيرين جنوني، كأنك فراشة تحت المطر) .(وأنا ما أزال حبك الأول ؟) ضحك في وجهكِ و ما أروع مرافىء العودة إلى جنته ها هي كما كانت وأنتِ ظافرة بقلبه كأول مرة ، كأول لقاء ، كأول موعد بينكما ، تحبينه أكثر و تذوبين في البعيد ثم تسرقك اغفاءةٌ خضراء من هدوء وأمان.

حُلم مقطوع الرأس !

هذا الموج يكتسح عشش صمتي المستضعف، أزدرد خيباته شهورًا تذوب فوق هامات الأيام . ضغط مسلط على ذهني وهذه الأفكار و الخيالات تروح و تجيء في حصارها، أحسب انفلاتات هذا القلب كما لو كانت زوابع صغيرة في فنجان قهوتي الصباحي عندما أخدع نفسي بتجاهل ...

نسيت « همنجواي و شيخهُ و البحر « فوق سريري البارد. أفتقد التركيز ساهماً أنسَ نفسي لا أعي ما حل بي؟!

عجوز همنجواي تاه في هوجاء المصير بينما أنا تائه في انتحارات مساءاتي الكئيبة احدق في دفتر يومياتي ، صفحات ناصعة التوحد أو صحراء من جليد أهرول فيها لكني على أية حال سأكتب ..

ساكتب تحولات عاشق فقد عقارب ساعته من بعد ذوبان الغروب ، و هو وحيدًا لم يجد الجنة التي تؤويه فتحدثه أمه عن عروس مبخرة بالعود، عن حجرةٍ تعبق برائحة « المشموم «[٢] عن عمر الثلاثين و كيف لرجلٍ أن يطول صيامه عن أنثى تكون نصفه الآخر ؟!

صيام تواصل في تصاعده وقد يكون عقدة، فيستوحش برد الروح عابرًا عواصم الغربة ، تأكلني .. نعم غريبٌ أنا وسأكتب إليكِ، أني أشتريت قارورة عطرٍ أودعتها نبض قلبي وهي ذي حقيبة صغيرة تليق بيديك الناعمتين، مخبأ في جوفها غيمٌ شتائي سيمطر حزني الشفيف بين كفيك فربما تلتفتين .

أمنيتي أن تفعلي، أما تدرين ؟

تدرين ما هو طعم استسلامي حين يهفو خيالك حانياً في قصائد قديمة كتبتها لكِ ظلت قابعة في ظلمة درج طاولتي، تركت بوحها جرحاً مفتوحاً على الأسئلة،

٢-المشموم : نبتة عطرية تنمو بكثرة في البحرين ولها استعمالات كثيرة.

فما أقساكِ يا قاتلتي كيف لا تكترثين؟!

وقفت سريعاً، أهتزت طاولتي، أندلق فنجاني و شهق جسد الورقة البيضاء، صار مغسولا يشبه حزني ، فمن يواسيني الآن ؟ هل أرميه في سلة المهملات أم أراوغ كل هذه المشاعر كي أحفف نيرانها المسلطة عليّ؟

حاولت من بعد تنظيف الطاولة أن أشتت ما يعلق برأسي من أفكار لكن .. أتعرفين؟ أسوأ ما في الأمر حينما تتراكم خسائرنا نستيقظ و نستغيث، نُرتق جروحاً سال قيحُها ، نبحث عن سرابٍ و نحلم في مساحات الفراغ بشجرةٍ نستظل بها! هي ذي الطاولة الآن نظيفة وها أمامي ورقة جديدة، أريد ورقاً غير هذا، بحثتُ عنه في درج طاولتي ، فوضى الأشياء هنا تربكني ، وجدتُ شمعاً مغلفاً فضحكتُ « أناي « الحائرة و جاءت الذكرى تهرول لقلبي المسكين ..أتذكر، مجرد محل هدايا صغير المساحة توقفت عنده ، حتى البضاعة متواضعة و ربما هو محل جديد، هنا من وراء الواجهة الزجاجية أنتِ . أنثى عشرينية تنقصها الخبرة لا تعرف كيف تنفض الغُبار عن الأرفف الكثيرة ثم تعطس. ما أحلاها من عطسة!

تلتفت ناحيتي بخجلها اللطيف ، ما بي أتطفل على موقفها وهي مُحرجة .. فوجدتُ يدي تمتد عشوائياً فأخذتُ ما و كان على الرف . احساسي كما موسيقى أرقص على ايقاعها وقد أنتشيتُ فرحاً وليكن هذا الشمع في تلك اللحظات حينما أضيء نومه ، يشتعل بذكراكِ، قلباً لا يفتأ عن ترتيل كتاب الشوق و الغواية.

وها جنيتُ ابتسامة شكر تقولين فيها : شكرًا يا أول زبونٍ في هذا الصباح . بعفويتي قبلت الشمع المغلف و طاف بالذاكرة أول همسات الخفقان، روحي مغمورة في نبيذ فرحها ، هذا العشق يبدأ فصلهُ الأول في كتاب المحبين ثم بي أهتدي إلى فراديس حُلمي وأسهر مع الليل يا نجمة السماء البعيدة أنتِ.

أتذكر .. لحظة مغادرتي بدأت ستارة من المطر تغسل جفاف الطرق الأسفلتية،

أحتضن المطر وأرقص و ستعرف كل قطرةٍ منهُ قصتي ذاك اليوم. فتحتُ المغلف، أوقدت شمعة وها أنتِ أمامي يدكِ ممدودة أقبلها كأي مجنون لا يتوب عن هواه ثم حرثتُ سطورًا جديدة ، أنتِ الآن أبجديتي و كل قصائدي، لتفرحي يا روحي وتبتهجي في حبها.

أأنا قلتُ « حبها « ؟!

كان لقاءًا يتيماً، أي حبٍ هذا ؟ بداية مضحكة و ركيكة لقصيدة، مزقت الورقة ، ترددت في اطفاء الشمعة بينما شرفة حزني تترصد لحظة ضعفٍ مني فأقع في فخ قنوطي. ثقتي تهتز بنفسي كما كل المرات السابقة ، لو يتوقف هذا العذاب و تغادرني تلك الأفكار المزعجة .

حل المساء، ربما ذهني يصفو بعض الشيء، القصيدة أتذكرها الآن وهل أستطيع نسيانها وقد صارت ممزقة، أسمع أحتضارها كي ما أنتشل بقايا أنفاسها ، تُلح عليّ ذاكرتي أن أعود ثانية أكتبها، عزفت عن الموضوع. ذهني مشغول بومضات سريعة من حُلم البارحة .

وجدتني أجوب اخضرار البستان، كنت قفزت من السور المنخفض ، لستُ متعبًا ولا أريد ظِلا كي احتمي من حرارة الشمس، لكني كنتُ أريد أخذ طاقة ورد كانت ترقد بسلام على الأرجوحة الشجرية . شعرت بأن تلك الطاقة تناديني بعطرها الفواح ، صدري يشتاق عناقها. هرولت لكني ألهث في الفراغ ولا أصل تلك الأرجوحة أو حتى ألمس الشجرة! تفر مني الأشياء وهذا حلمي يتدثر بموته .

تركت بقايا ذاك الحلم ، أخذت ورقة وبدأت أكتب

..أنتِ ..

أهزوجة طريق الغربة عند حافة المعنى

و ها أنا ..

في كفي شمعة الحلم

حيث باغتتني كف الريح

وهي ذي ارتعاشات قلبي
يتعرى خريفها
مما تعرفين

لا أجد شيئاً مما كتبته يستحق ، مرة أخرى مزقت الورقة، أشعر كأنني وسط مدينةٍ أمر كما عابر سبيل فتضيع مني حواسي بالاتجاهات ، وحدها الريح تعرف اتجاهها بينما الأبواب موصدة في وجهي!

ثم يهاجمني شعور آخر ، أمر بشارعٍ حيث كل رجلٍ مع أنثاه فيتبادلون أوقاتهم بالفرح و الضحكات ما عداي أنا، فمن يعرفني هنا ؟

لا الكتابة تعزيني و لا مجرد الذكرى تطببُ جرحي ، أتعرفين بأنني سميت هذا الشارع الذي يقع فيه المحل بإسمك ؟ سلسال ذهب معلق في عنقك يبرز من تحت حجابك الأسود (إيمان) حيثُ آمنت بأنك ربة هذا الغيم الذي يمطرني بالفرح .

غدًا سأعود للمحل ، سأتكلم معها فلا بد لهذه القصة من بداية تتخطى عتبات التردد يا (إيمان) ، احساسي بالزمن مرتبك ، أفكاري مشغولة بكِ و ها هو الشارع شبه مهجور كما قلبي لا أحد يصغي لأوجاعه التي تفتش الظمأ. هل أعود للكتابة ؟ تركت الورق في صحراء بياضه ثم أخذتُ أتذكر وجهها السكري كما الحليب و عيناها الطيبتين أتمنى فقط أن لا يكون حلماً مقطوع الرأس هنا أهرول في مساحاته، أضناني السهر ثم سرقني النوم و هذا قلمي لا يزال بين أصابعي.

مصرع مومويا[٢]

فتح أول صفحات الملف و قرأ ...

اخبرتني عن صباح شبه غائم و تربة القرية أتمت اغتسالها بندى السماوات و هي ذي رائحة الحشائش و الأخشاب الجافة تُحرق في تنور العجوز التي تبيع جرارها الفخارية على ناصية الطريق .. ثم تتوقف عندها تشاهدها و هي منهكة في عملها، تمسح عرقها ، ترفع من تقوس ظهرها حيث يكتسيها الدخان ..

-مومويا ، أنتِ استعرتِ جرة من أحدهم ربما جارتك ، صح ؟

تخصرت بيسراها من بعد أن أنزلت جرتها الفارغة كي ترتاح قليلا وردت :

-لاتنتظري من أبي مقايضتك بالسمك ، إنها جرتي .

-سوف تكسرينها عند الغدير رغم صلواتك و تأتين إليّ ، عندي جِرار جديدة كما ترين.

هزت رأسها غير مهتمة و مضت في طريقها تواصل خطواتها على مهل، الشمس تنجح في التسلل من بعض فتحات السحب، هذا اصفرار الضوء المسافر ينير وجهها الفتي و الجميل ، الجرة ثقيلة . قريباً منها تسمع بعض الجلبة ثلاثة صبيان يطاردون كلبًا بالحجارة للحظات ثم يختفون عن نظرها ، يرجع جو الهدوء و تعود هي في خواء وحدتها تمشي درب الغدير مثل كل يوم.

تتعرج الدرب ، تطول فتزيد من تعب اليوم و كأن لا نهاية تلوح لهذا الشقاء غير ظلال أشجار بستان أحد تجار دِيلمون* مومويا تقرر تفيؤ الظلال لترتاح . لحظات تمر و الطريق هادئة ، ليت هذا البستان يفتح بابه كي يستقبلها ، ستأكل من فواكهه و تشرب من برودة ماءه ، حملت أحلامها الفقيرة كسيرة القلب و غادرت ، لكنها حين تخطت البستان بقليل ألتفتت إلى شابٍ وسيم

٢-مومويا إسم مُتخيل من المؤلف .

الوجه .

هي تعرفه و قد رأته من قبل، كثيرا ما يتجول على ظهر فرسه داخل و خارج البستان ، أرتابت منه هذه المرة ، نظراته ليست بريئة فخافت ، الأسلم أن تبتعد كي ما تنجو بنفسها، تريد الانتهاء من أعمالها حتى تتجنب غضب و تأنيب زوجة أبيها . خطواتها كانت سريعة ثم وصلت الغدير، بروز الصخرة أشعرها بشيء من الطمأنينة وقد دخلت المعبد .

أنزلت جرتها ، تنهدت متعبة وأقتربت من ظل النخلة تلتقط أنفاسها ، المعبد خالٍ على غير العادة ، أين هُم الأهالي ؟ حتى كاهن المعبد العجوز ليس هنا . أحست بخوف عميق، عمق هذا الصمت المتواطىء ضدها حيث يفرش عباءة رهبته ، كانت يديها ترتعشان و هي تملء الجرة بماء الغدير ، تتلوا صلاة الشكر كما علمتها أمها، تصلي مغمضة العينين ، تجثو على ركبتيها ، تشكر نِعم « إنكي «[٣] ثم تسجد في اضطراب. ترفع جرتها حتى تؤدي طقساً آخر داخل المعبد تريد تبديد الخوف الذي يحاصرها و لكن الطريق صارت فجأة مسدودة بوجهها!

وجدته على صهوة فرسه يمعن النظر فيها، كان كتلة من اللهفة و الترقب ، فطلب منها شرب الماء وأدعي بأنه قادم من مشوار بعيد. سقته الماء على عجل و قلبها يهرول في خوف اللحظات يتوجس الشر القادم ، مشت بضع خطوات ، تعثرت فأنكسرت الجرة و سال ماؤها بينما هو يتبعها و يضحك .

يضحك في سكون المكان ، يالهُ من سكون صعب يأتي على حصونها فيخترق الخوف قاع قلبها وهذا وجهه يحتشد بالرغبة تراهُ متلاحق الأنفاس تفضحهُ الشهوة و هو يعبث بأعضائه التناسلية. عبثًا حاولت الهرب لكن فشلت ، فوقعت في مصيدة شره ، أيقنت ساعة خرابها ، ركعت تحت أقدام الفرس و توسلت :

-أرجوك لا تؤذني أأرجوك.

٣-إنكي .. إله الحكمة و مانح المياه العذبة للبشرية في حضارة دِيلمون .

-ما رأيت دِيلمونية في مثل جمالكِ قط !

-أرجوك وحق إنزاك [٤] أتركني اذهب .

تواتيها بعض الشجاعة فترمي بوجهه حفنة من التراب و تركض ، أستنفر عزم جواده و ها حصرها ثانية وحنقه يشتد . كالشيطان هب واقفًا وأنشب يديه في جسدها و توسلاتها لا تنفع رغم صراخها ثم .. مزق ملابسها وشرع يقبلها بجنون ، قد شل حركتها وسرق كنزها! أشبع حيوانيته الآثمة ، مومويا مدمرة الاحساس ، تلملم نفسها و تنتحب وزاد رعبها لما رأته يستخرج فأسه المخيفة ، كانت ترجته بأن يتركها ، تزحف على جراحها و هذه السماء رمادٌ وحزنٌ حيث لا أحد ينقذها الآن ، ترجته بحرارة حتى كادت حجارة المعبد ان تبكيها لكن ما لان قلبه ، بعنفِ جز شعرها و حصدت فأسه دم الجمجمة حارًا يتفجر مختلطًا مع وداعة ماء الغدير .

# # #

أغلق الملف ثم اطفأ سيجارته و هز رأسه ..

-طلبت منك تقرير عن القبر المكتشف في مقبرة عالي [٥] لكن ما هذا ؟

-هذا تقرير من وحي الحالة التي وجدنا عليها مومويا .

-لا أريد منك قصة قصيرة مأساوية ، أنت هنا في المتحف ولست في صالة سينما

-لكن هناك ملابسات و...

-عزيزي لا تزال خريج جديد ، أنت متحمس أكثر من اللازم ، تقريرك مرفوض فأنا مدير متحف ولستُ مدير تحرير جريدة .

-مومويا تم قتلها .

٤-إنزاك .. الإله الرئيس المعبود في حضارة دِيلمون - البحرين .

٥-مقبرة عالي .. أكبر مقبرة أثرية في العالم .

-أختلف معك ، هذا الأمر لست أنت من يقرره .

-عفوًا أذكرك أن التاريخ البشري مليء بالعنف منذ الأزل .

-تريد أن تُشهّر بتاريخ حضارة دِيلمون هذا ما تريدهُ حضرتك ؟

-وهل تريد من التاريخ أن يأخذ إجازة و يراوغ الحقيقة؟

-أسمع ، حضارة دِيلمون حملت دومًا رسالة السلام ، أنت تتفوه بتفاهات مهلوسة.

-الجريمة قديمة قدم التاريخ، من قال أننا سنشوه تاريخ حضارتنا ، أنا فقط أقترح ايقاف التنقيب ، لنترك القبر ، روح موموريا تتعذب!

-لك خيال واسع يا ابني، و ستقترح عليّ أيضًا أن نقيم لهذه الوثنية مجلس عزاء أليس كذلك ؟!

-صدقني، موموريا أغتصبت وقُتلت ، الفأس خلف الجمجمة أتلفت جزءًا كبيرًا من القشرة الدماغية و هذا بعيد عن أي طقس تعبدي تفترضه البعثة الأجنبية

-نحن نتعامل مع خبراء آثار مجازين من اليونسكو ، تقريرك مرفوض ، سنفتح القبر و ننقل الهيكل ، عندنا مؤتمر صحفي مهم.

-لكن فقط أسمعني لحظة و...

-تفضل على مكتبك .

محبطًا ترك حجرة المدير ، جنائزية من السواد يراها وكأن موموريا قُتلت للتو ، تمد لهُ كفها المخضبة بالدم و تبكي فلا أحد ينتشل عذابات روحها من تفاصيل المشهد الفاجع. لا يدري كيف يوقف نزيف روحها و يشعر بالعجز .. صار يفتح في خياله أبوابًا كثيرة ثم يبحث عن صوتها ، يتردد في أرجاء المتحف بين واجهات العرض الزجاجية، رأسه تكاد تنفجر من إلحاح الصوت.

يرجع إلى حجرته ثم يرمي بالتقرير منزعجًا ، يأخذ ورقة بيضاء و يبدأ برسم ما يراه الآن .. كان صوت هاتف المكتب يواصل الرنين ، غير أنه أهمله . صار يرسم وجهًا يعتقد بأنهُ وجهها موموريا في ترحالات التلاشي القدري ، جمال وجهٍ لم

تمهله أصابع القدر حتى أغتالته بوحشية.

رسمها وهي تحمل جرتها، حيث ابتسامتها الحائرة ، لكن هنا جدران الخرسانة في مدينة رمادية تحيط غربتها وهي تتجول وسط الشوارع لا تدري أين تذهب بينما السيارات تحذرها بسيل متواصل من الأبواق حتى تغادر نحو الرصيف ، ولا صديق لها هنا !

لكنها .. هكذا فجأة تغادر مساحة الورقة البيضاء و تتجسد بين جدران المكتب وقد بدأت تنظر ما حولها لا تعرف أين هي ثم تلتفت إليه ، كان مذهول النظرات لا يصدق كيف حصل هذا! أصابعها كانت تتحسس ما يرقد فوق الطاولة فدلقت بعض الحبر و لمسته بأصابعها ، بدى على وجهها شيء من الأسف فقالت بعض الكلمات التي لم يعرف شيفرتها اللغوية .

أقتربت منه ثم مدت كفها تتلمس قسمات وجهه كأنما تتأكد بأنه إنسانٌ مثلها ، حول جيدها عُقد من المرجان ربما كما يبدُ ، خلعته و قدمته عن طيب خاطر . لم يبدي أي حركة وهو لا يزال متجمد الذهول فوق مقعده .. « موموريا » ! فوضعت يدها على الجهة اليسرى من صدرها عندما سمعت اسمها ، هزت رأسها قليلا ، يطربها أن يناديها أحدٌ بأسمها .

ألتفتت نحو الشماعة وقد شدها منظر الوشاح الصوفي الملون ، وشاح كانت تركته سُهى زميلته في المكتب المجاور أمس و لم تسترده بعد . حدقت فيه بسعادة أتشحت به وفي غمضة عين تبخرت من المكان ! ما الذي يجعل الهاتف هكذا لا يتوقف ؟!

-آلوو، نعم ، أهلا سُهى ، ماذا ؟ المدير غاضب مني ؟!

-أنت لا ترد على اتصالاته ماذا بك ؟

-لا أدري لكن أنا ...

-طلب مني أن أبلغك بما حدث في موقع التنقيب .

-وماذا حدث يعني ؟ هؤلاء ذوي البشرة الحمراء أكيد فتحوا القبر و..

- نعم فتحوا القبر لكنهم وجدوه فارغًا ! الصور السابقة لموقع القبر كان هناك هيكل عظمي لامرأة سميتموها « مو .. موموريا « .

-القبر فارغ ؟!

-نعم و المدير غاضب .

- الحمد لله ، الحمد لله ، الآن أنا مرتاح يا سُهى .

-لم أفهم شيء مما تقول ، أنت رجعت تكتب قصصاً اخرى من جديد ؟

-تعاليّ مكتبي وسأشرح لكِ كل شيء ، شرط ألا تعتبريني مجنوناً ، ما يهمني الآن أنها بخير .

-من تقصد ؟

- موموريا جاءت مكتبي ، أخذت وشاحك الصوفي وقايضته بعقد مرجاني جميل ، أنتِ الآن تعاليّ ولا تسأليني .

موسم الهجرة[٢]

شهواني و قذر، دنس عش حبنا!

أحرق حقول الورد و القصائد و دلق عطر الأيام الجميلة، خائن أوصلني إلى حافة الجنون. كنتُ أحفظه في تفاصيل يومي ، هناك رجالٌ يشبهونه في هيئته، طويل القامة بغترة حمراء و عِقال مائل جهة اليمين بذقن حليقة و شارب رجولي كث يشبه شارب « غونتر غراس «* .

لا أستطيع إلا أن أهرب إليه ، خيالهُ يباغت ذاكرتي حتى وأنا خارج البيت ثم أجدني أقبل خاتم زواجنا ، هكذا لا أتمكن من الفرار منه . نار الأسئلة تلهب دمي ، لايزال يقدس حُبنا أم لا ؟ أراني غارقة في حبه و أحاول إلتماس التبريرات لنزواته حيثُ اخوض بحارًا من الشك و الوجع و الشوك.

حاولت إضاءة بعض الزوايا في حياتنا، تلك الزوايا التي خلقت مرتفعات خضراء من السعادة في حياتي، أقنعت نفسي أن الأخطاء دائماً ما تحصل و.. « عندما تقسو الحياة يجب أن لا نعض «!*

سأعطيه فرصة ثانية و لن أتشاحن معه ، أدرك أنني صرت عصبية المزاج معه لكن ما حيلتي؟ ما يحصل فوق احتمالي فكيف لا أغضب و تشتعل نيران غيرتي ؟

نعم أصبح زير نساء، عبث بمشاعري وأستفزني أيما استفزاز و تحول في نظري إلى سلة مهملات مركونة قرب الرصيف ، فقد دمر ما شيدناه من عرش حبنا الطاهر. عشيقات الليل واتصالاتهن و صخب معجباته المسحورات بقصائده

٢- موسم الهجرة في الأصل قصة قصيرة تحولت بعد سنوات إلى عمل روائي بعنوان / ما بعد غيبوبة الضبع / أحمد المؤذن ، قيد النشر لدى دائرة الثقافة في إمارة الشارقة.. الإمارات العربية المتحدة.

و رواياته تحولن إلى ما يشبه الوباء يحاصرني و يحرقني . هُن يكسبن الجولة تلو الأخرى على حساب سعادتي ، ليذهبن معه إلى الجحيم لكن ليس قبل أن أنتقم ..

خمد ذاك البركان الذي كون جزيرة عشقنا حيث دب فيها الخراب ، أنتظره على العشاء ثم يتأخر كالعادة وبعدها يعتذر لكونه ينتظر ناشرًا أو مشغول في الجريدة باعداد ملحق الثقافة لليوم التالي ، أعذاره زادت في معدلها عن بقية كذباته. ما الذي جعلني أتورط فيه هكذا ؟

كانت أصبوحته القصصية غاية في الروعة بالنسبة لطالبة جامعية ساذجة النوايا تجهل أحابيل الماكرين أمثاله ممن خبروا اللهو بالقلوب الصغيرة على الحياة. بضع مداخلات حتى جاء دوري . ما كنت أدري أن تلك المداخلة ستكون بمثابة شكة الدبوس الأول على سطح القماش و نحن نضع الغرزة الأولى فننسج معاً هذه الحكاية ثم ..

كان لقاءنا الأول ، شموع وابتسامات في ليل المدينة التي أصبح أسمنتها كما اخضرار بهجة الحياة تهدينا طعماً آخر لمعنى تذوق لحظات الفرح بعيدًا عن روتين الأيام المتشابهة و تقاليد وأعراف المجتمع . هل هو تمرد ؟ ربما هو كذلك فقد أثنى على ثقافتي و أبدى استعداده كي يقرأ و يعلق على بعض النصوص القصصية التي أنشرها في صفحتي « الفيسبوكية « ثم وجدته يومها يقول : لن تغير المرأة العصرية من واقعها بحماس الشعارات ، عليها أن تثور ، تعلن العصيان في سبيل نيل حقوقها ، بعد ذلك ستخلق تحررها الحقيقي و ليس السطحي «!

ما كنتُ أدري بأنني وقعت حينئذٍ في فخه . وقعتُ و أنتهى الأمر و ها مرت عليّ سبعة أعوام قد تذوقت منها ثلاثاً وحسب من السعادة سُرعان ما فرت من يدي . صار يصرخ في وجهي ، يغلق عليه باب حجرته كي يفر إلى الكتابة أو يغرق في مكالمات هاتفية طويلة يتخللها الضحك و الكلام الداعر مع بعض المقابلات

الفضائية التي تزيد من نجوميته في الوسط الثقافي.

لابأس .. ها أنا الآن مثل أي زوجة مخلصة سوف تتحامل على جراحها و تعيش دورها ثم تُحيد آلام روحها لتبقيها قيد التجميد المؤقت حتى لا يسيطر الخراب كلياً على حياتها و تكون هي الحلقة الأضعف كما يحدث غالباً و تهاجمها سهام الناس بأنها السبب في خسارة زواجها.

الآن في الفراغ البارد أرتكب انتظاره، كما تفعل الزوجات المخلصات ، رتبت الطاولة ، وزعت بعض الصحون وقد جهزت بعض الدجاج المشوي ، لم أترك أيما تفصيل صغير على الطاولة حتى أتممته على أكمل وجه ، عندما يصل سأشعل الشمع و هذا فستان السهرة بلونه الأحمر العنبي كما يحبه .

لكن لهذه التعاسة أكثر من موعد معي .. لحظتها وأنا أفتح ستارة نافذتي ، ها هو ذا في بقعة ضوء بسيارة امرأة غريبة ، كان يبادلها قبلة محمومة ! ماتبقى من هذا الليل ليس لي ؛ أنثى بداخلي تُذبح و تتراكم أوجاعها ، اختناقاتها . السكوت خياراً ليس لهُ مكان الآن مثل كل مرة أدسه في وسادتي وأصمت مقهورة .

لحظة دخوله البيت ، اخذ ينظر إليّ .. صرخت في وجهه المترنح من أثر الخمرة :

-لا أريد استقبال خيانتك ، لماذا قطعت سهرتك معها ؟!

-صح ، قطعت السهرة ، السماء كانت تمطر ، تستطيعين رسم لوحة جميلة من قصتي معها ، حبيبين تحت المطر!

كأنني تجمدت من وقاحته التي واجهني بها ، غير آبه بفعلته ، سكبت في وجهه كأس الماء . رأيت يده تنفلت كي تصفعني ، لكنني تفاديتها ، فهربت من أمامه وأقفلت خلفي باب حجرتي حتى الصباح .

نظفت ما علق بذاكرتي من فوضى البارحة وسلمت بحتمية الخلافات الزوجية ، رأيته في الصالون ، هادىء يتصفح جريدته ، جئته ثم ألقيت تحية الصباح وسلمته فاتورة ضعفي ، متغاضية عن كشف حساب الشهور الماضية ، صحيح أن وجعها في تصاعد ويتسبب بالمزيد من الحزن لروحي ، لكن .. يبقى هذا الرجل

زوجي .

لم يرد على تحيتي ، أشحت بوجهي عنه ، تركته ولم أرغب في افتعال أي حوار معه . عدتُ إلى مرسمي ، أفتقد شغفي بهذا المكان مهجور من ... ؟ لا أتذكر المرة الأخيرة التي كنت فيها هنا ! هي المشاكل التي تبدد أجمل ساعات العمر ، حرمتني الحج إلى احتفال الألوان و الطواف في عالمها الرائع ، ها أنا أعود وكلي شوق . هاهو الحامل الخشبي ، صابرٌ ها هنا وانتظاره يعانق هدوء بياض القماش ، قمت و نظفته من الغبار حيث ينتظر همس ريشتي .

حكتها في خطوط سريعة ، الآن سأرقص مثل فراشة توزع هدايا بيضها على الخضرة النائمة في تلك الحدائق المغسولة بنور الصباح . سأرقص بالأحمر ، فتنة اللعب المخاتل تكتنز روحه الأسطورية ، وردة وحيدة قرب أرصفة مدينةٍ مهجورةٍ ، لا فرح لها ، جلدها متقشر وقد أثخنته تصدعات الحزن و كثيرٌ من ظلام الأسود هنا . الفرشاة تستمر باللعب و زمام المبادرة عندها ، غريبة هذه الفرشاة ، بدأت تجوس مناطق وجعي ، أتخطى الأسلاك الشائكة ، أرسمه الآن حول الوردة المحاصرة.

لماذا يأتي الآن ؟ جاء كي يعتذر ؟ هو في العادة لا يكترث لكنه كان ينظر إلى لوحتي و يهز رأسه ..

-لوحة متشائمة ، كأنكِ تكبلين فرح الألوان ن أما هذه الوردة المسكينة ما ذنبها تبقى محاطة بالأسلاك الشائكة ؟

بداخلي كنتُ أصرخ في فضاء الصمت .. « هذه أنا التي تبحث عن حريتها ، أصبحتُ في نظرك مجرد قروية ساذجة لا تروقها العصرنة ، أفكارها متخلفة و بسيطة . أنا التي صار يعتبرني مجرد عشاء بائت تعافه النفس ، ضحيت بالكثير من أجله وأنا أسير في دروبه باحثةً عن ذاتي ولكن ضاعت مني . صارت أحلامي تضمحل و ها سأذوب في الخسران « !

أراهُ يتبسم ، هي سخرية غير معلنة من ذوقه العصري ، تحملته على مضض

حتى غادر البيت .

بحثت عن جواز سفري ، مجوهراتي ، بعض الصور من شتات ذكرياتي ، وهنا حقيبة صغيرة ثم وجدتني عند باب البيت أنتظر سيارة الأجرة ، ثم غادرتُ كل شيء .

**توقف عازف البيانو مع السطر الأخير ، فوجئتُ بالصالة ممتلئة بالجمهور ، عاصفة من التصفيق والاعجاب و التهاني ، الكثير من الوجوه تتسابق لمصافحتي ، ليتهُ كان هناك كي يبارك نجاحي ن كالعادة هو لا يكترث بما أحققه من نجاح . فلاشات كاميرات الصحافة تومض في وجهي ولاتزال هناك أيادي ممدودة نحوي و مر الوقت ثم بدأ الصمت يخيم على الصالة ، صارت فارغة ، فأخبرت المدير ، أنني عند وعدي ، فكل اللوحات المعروضة هي هديتي للصالة . شكرني بحرارة ، لوحت لهُ وأنا عند المخرج ، كأنني ألوح بشكل آخر لهذا البلد ، فقد قررتُ أهرب من جحيمي هنا ، متأهبةٌ الآن إلى فعل ما كنتُ أخاف منه في الأعوام الماضية ، متأهبةٌ إلى موسم الهجرة و في جوفي حرائق دموع لا تنطفىء. نظرت لمدير الصالة وهو يتحدث في هاتفه مسروراً بهديتي المفاجئة ، أنتشلني صوت سيارة الأجرة ، السماء بدأت بزخات خفيفة ، لكن روحي تشعر بدفئها الآن .

عودة

رحى الطحن تستوي فوق بقاياك وتستفحل شراستها، تأكل من عمرك، تأتي على عظمك كالسوس. يأكلك القلق على الساق الجبسية المنتفخة وحديث الطبيب عن أهمية عنصر « الكالسيوم «وبلوغك من العمر عتيّا ، وشرين راحة ! كان يشدد في حديثة و يؤكد (شهرين راحة) ابنك يهز رأسه موافقاً و تقف خارج الباب زوجته بوجهها المتجهم!

الرؤية امامك تغيم و هذا طحن الألم يهدأ مثل الماء أخيراً من بعد إبرة المسكن، معالم حجرتك تصبح ضبابية ، لكن مع ذلك سمعت نشاز صوتها يأتيك و قبل أن تذوب الصورة ، تراه مستسلماً كخروف لسكين الجزار، سكاكين لسانها تنفلت في فناء بيتك بلا حياء .. « إلى بيتي ؟ لا تفكر ، والدك لستُ مسؤولة عنه ، خذهُ إلى دار العجزة»! تغيم الصورة و ترتاح ، لكنك لستَ كذلك .

وهكذا .. أضحت القرية بعيدة ، اخذوك إلى علبة أسمنتية ضائعة في هذه الغابة الكبيرة ، بيت يتنفس من صخب المدينة ، حيث نهارها يشرق على قاذورات الديزل . هواء فاسد يخنقك ، فتطلب منها إغلاق النافذة ، تتأفف حينما تلح عليها ، فأين هي هيبة الفارس الذي كان ؟

ما العمل ؟ جيد أنها ذلفت بهاتفها الجوال ، حاولت و حاولت و القدم اليسرى أضعف من أن تحملك و الجبس كخرسانةس بيضاء ثقيلة تحمل مرها لليوم الثالث هنا في مدينة لا طعم لها كما هذا العكاز المعدني . هي ذي أطلت عليك تتفرج ، أنت لم تبلغ النافذة ولكنها بلغت مرادها فتبسمت ربما شامتة !

كل ذنبك أنك هنا ؟! اللعنة على العجز ووساوس الشيطان ، ينحصر تفكيرك في هذه القدم المعطلة و تتعجل الشفاء . يا لكآبة المكان هنا وبرود البشر ، وجهها متجهم و تكثر التذمر منذو دخلت ضيفاً عليها ، الحاجة إلى الناس ذُل ما بعدهُ

ذل ! أفكار سلبية تغزو تفكيرك ، سيجارة صباحية ستريح أعصابك ، فتبحث عن علبة الدخان ، بالأمس قام ابنك ودسها أسفل وسادتك كي لا تراها زوجته . هذا البصر صار واهناً فكيف ستكون باقي مسافة الرحلة في عمر الشقاء ؟

وها أنت تشعل واحدة ، تملأ منها نفسك ، فيتبدد الدخان بطيئاً وعينيك على الباب ، فيذهب مع الدخان تعبك و قلقك من كرسي متحرك احضروه بالأمس و تركوه في الحجرة ، لن تحتاجه كما يعتقدون . طبعاً فأنت الحاج صالح ، قهر في زمانه نخيل القرية ولم يهاب تعملقها ، يركن الآن لكرسي تافه ؟! تسحب نفساً آخر و جمرتها تتوقد ، فيتفرق الدخان براحة لذيذة تهبط فوق أراضيك، نسيت مراقبة الباب ، الرائحة تفضحك !

حدقت فيك مستنكرة و خطفت سيجارتك .. « التدخين ممنوع يا عمي « ! تلاشت أنفاسك المنتشية و كالعادة يختنق غضبك و تجمد أعصابك ، رغم أنها بعجرفتها حاسبتك حساب مراهقٍ متستر يختبر السيجارة الأولى .. « ألا تعرف أن التدخين يضر بصحتك « ؟! رشت جو الغرفة بملطف ، تركتك تتحسر على سويعات العصرية ، كنت تدخن أسفل شجرة التين في بيتٍ حنون تشتاق إليه ، حيث بالأمس كنت سيد بيتك و ها هو صار بعيد .

الأيام صارت تشبه بعضها ، أنت محاصر ، حتى مذياعك حينما أردت سماع بعض آيات القرآن الكريم ، بالكاد أتم « عبد الباسط عبد الصمد « التسمية وإذ بها تسرع في خطواتها ، خيم عليك شبحها الضخم ثم أغلقت المذياع بل و صادرته من حجرتك ! تذرعت بأن بيتها ليس سرادق عزاء وأن لكل شيء وقت و التصرف بهذا الشكل غير مرغوب . حياتك للآخرين باتت هي الأخرى غير مرغوبة ، لا عزاء لك فقائمة ممنوعاتها تتسع يوماً بعد يوم ، نهاية هذا النفق لا تعرفها .

الحمد لله ، رغم قسوة هذا الجدران الخرسانية وأهلها ، لكن العصافير لا تزال تغني للصباح، تدفع كرسيك نحو الشرفة ، منهكاً لم تسعيد عافيتك بعد. يدين منتفختين، الدم يجري فيهما بحمد الله ولكن هذا الظهر كأنما هو يحمل جلاميد

ثقال من تعب العمر.

تهز رأسك متأسفاً ، قلبك يحن للقرية، قاسمتك فرحها وكل الذكريات ، هيهات تنسَ طيب العيش فيها .. الصباحات هنا كريهة الطعم ، ما بال الأرصفة تحمل تعب الناس المتجهمين ؟ الأشجار لها خضرةٌ ذاوية يخنقها دخان السيارات ، صخب باعة الشوارع و تداخل الأصوات ، وأنت هنا لا تفلت من جو الوحشة . على أية حال أطعمت العصافير ثم تراجعت للخلف ، أنت لم تتعود على تحريك هذا الكرسي كما يجب ، هل أصطدمت بشيء ؟

المزهرية أهتزت من على المتكأ البلاستيكي ثم .. كنت متردداً و الكلمات لا تعرف كيف ترتبها في فوضى دهشتها ، لكنك في داخلك تعيش فرحة انتقامك الصغير ، بينما هي تشهق ويمتقع لون وجهها (المزهرية ثمينة وأسفك لا يجمع شظايا ما تكسر) ! ظلت تهدر بغضب ، جعلت من وجهك الشاحب سهلة مهملات تبتلع اهانات هذا النهار ، كريه مثل مدينة لا فرح فيها .

# # #

لا مرحباً بهذا المساء ؛ خسائرك متراكمة في كل دقيقة وأنت حبيس هذه الجدران ، عند عودته متعباً من عمله ، هذا دخان المعركة يتصاعد (فأنت مجرد عجوز مخرف تستمتع بتخريب ما حولك كي تنتقم ، أنت وأنت ...) صوتها ينفلت كالرصاص و يعقبه بكاء تماسيح محبوك الأداء .. هي تعرف ما تفعل ! النتيجة تعرفها ، ابنك يتجاسر و يسمعك محاضرة في أسس التصرف السليم بلباقة حضارية يصطنعها في حياد مزعوم ، يؤكد أن زوجته « العقربة « التي يسميها ملاك الرحمة توضع على الجرح فيبرأ ، لا تريد سوى راحتك !

أشحت بوجهك عنه لتحتفظ ببقايا كرامةٍ ذابلة و تضيع بك الدروب لكن ليس الآن ، هذا صديقٌ قديم يتصل ، يا فرج الله ..

-حاج عيسى ، أهلا بك . اتصالك غالي على قلبي .

-يا حاج صالح ، خطاك الشر ، الحمد لله على السلامة . تحتاج شيء ؟

-جزاك الله خيراً ، أنا في بيت ولدي .

حدقت في وجهها كي تفهم رسالتك ..

-أنا هنا نعم ، أي راحة يا حاج عيسى ؟! تعال خلصني من جهنم رحم الله والديك. عودة لبيتي ولقمة بسيطة أحسن لي من ذلة الناس ، تعال بسرعة .

-نصف ساعة وأنا عندك ، أبشر بالخير.

شياطين في الجنة![٢]

*إليك يا (محمد) بعد أن عرفتك غارقًا في جبّانة الصمت والغربة ، تنسج من الريح شباكًا وتنبت يديك براعم الضوء، وحيدًا تنبذك الوجوه!

مسح عرقه وكحّ قليلاً ثم دفع الباب. شمل المكان بنظرة فاحصة ، الكتب الكثيرة تنام على الأرفف ، طويلة ونظيفة تجعله يملأ رئتيه بالهواء العابق برائحة الكتب العتيقة مع ملطف الجو العطري الرخيص الذي يستعمله فرّاش المكتبة. رغم هذا لابأس ، هي رائحة الجنّة ، يملأ رئتيه بالهواء وتتوقد عيناه بنظرة جوع للمكتبة ، رائعة كما تركها من فترة.

أنتبهت أمينة المكتبة إليه بعد أن لفظ الباب صرير تعبه وهو ينغلق، فتوقفت عن قص ورقة كانت في يدها ثتم تأففت ضيقاً، ستطرده هذه المرة. هو... تحرك بنشاط ، يتفقد الأرفف ، يتسمر مكانه منتصباً مثل لوح خشب ، يطالع الإصدارات الجديدة ، تعانده نظارته القديمة ، تكاد تسقط عن أرنبة أنفه ، مستهلكة وذراعها اليسرى مكسورة ، يلحمها شريط لاصق ، قذر كحال ملابسه، تتنافر ألوانها رثة تثير قرف أمينة المكتبة التي لا تزال تتابعه بنظراتها.

يأخذ معه كتابين عتيقين ويجلس، يمسح نظارته، ينفخ تياراً هوائياً على سطحها، ينظفها مستعجلاً.

تفرحه المكتبة وهي خالية، تكاثر الناس لايفرز إلا الإزعاج! لحظات حتى دخل أحدهم ، « يعرفه تماماً « هذا الطويل يتحدث في هاتفه الجوّال ويلتقط مجلة،

٢- ولدت هذه القصة وهي تحمل في طياتها بذرة روائية ، فقام مؤلفها بتحويلها إلى عمل روائي بعنوان (فزّاعة بوجه الريح .. كاكاشي / أحمد المؤذّن) – وصدرت عن دار الكتب و الدراسات العربية / ٢٠١٩ - الطبعة الأولى - الأسكندرية، بعدها صدرت على شكل كتاب إلكتروني من دار بسمة للنشر الإلكتروني ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٣ المغرب.

يجلس و يتصفحها بدون اهتمام وشيء من الفوضوية.

بطرقات خفيفة ينبهه إلى ضرورة إلتزام الهدوء، لكنه لايهتم ، غير مبال يواصل حديثه، يعتدل في جلسته ويرمقه ساخطاً ، يراه كأحد « الشياطين» الذين أنجبتهم المدينة ، أناس استهلاكيون مشبعون بالأنانية والمادية. شياطين يدخلون جنته « المكتبة « المتدثرة بكتبها ، كمحراب مُقدس لا تحتمل مثل هؤلاء ، جنته الوارفة الظلال، ملجأه الوحيد من تشرد الشوارع وقسوة البشر. أب سكير ومفلس ، عليه لعنات الله والناس أجمعين، قام بضربه هذا الصباح وبعثر كتبه في الشارع . تشنج الانهزام و الصراخ احتدم في داخله ثم ينفلت هارباً ، يلوذ بأزقة المدينة التي حفظت وجهه ، متعب وجائع ومهمش يتخبط مثل حشرة عمياء.

كان قد توقف وجعه بعض الشيء ثم ارتاح قرب رصيف مدرسة إعدادية، عرض على أحد الطلاب شرح دروس اللغة الإنجليزية. لحسن حظه قبل هذا الآخر عرضه فأنقذ نفسه من قسوة الجوع.

دفنه مؤقتاً بأربع قطع « سمبوسة « في رغيف ، يراقبه عامل المطعم الهندي متقززاً من طريقة أكله الفوضوية ، مسح فمه مغادراً تتلقفه المدينة هائماً على وجهه.

ليس إلا هذه المكتبة تأوي غربته ، تحنو عليه كما يظن . هنا كل الكتب تعزف له موسيقى تشريف خاصة تليق به كقارىء من الطراز الأول؛ فرح يبلغ عنان التحليق ، هنا يدخل معارك لا يُهزم فيها ، فيفتح بملاحم الشعر حصوناً ويغزو قلاعاً وقلوباً أو يتجول مع « الصعاليك « في قلب البيداء، يخطف ويسبي سمراوات البادية. هو هنا السيد في أعالي البحار، يصنع على صهوة الموج انتصارات لا تموت!

أشياؤه الداخلية المفقودة ، نثارها يجتمع هنا ، يستريح محاولاً النسيان، لكنه لاينسى هذا الكائن الشيطاني. « كل من لا يروق له يستحق لقب الشيطان

« ، فبوسعه رؤية الرجل ، شيطان تعلو رأسه ... نعم شيطان ولاشيء آخر! من وراء نظارته يرمقه حانقاً ... لا فائدة فقد انشغرت المقاعد بالناس وغادر الهدوء جو المكتبة . يثرثرون لا مبالين بشيء، لو خرج المتنبي من أحد دواوينه الشعرية وألقى فيهم قصيدة عصماء، لتضاحكوا عليه وحسبوه تمثال شمع فر من أحد متاحف التاريخ.

يبحلق فيهم ، ما أسخف الشياطين، تتجمع في المكتبة ، لا مكان لها هنا. وحدات التكييف تمتص حر الصيف ، تفتح شهيتهم على تبادل الأحاديث الجانبية ، يعبثون بأعصابه، لا أحد يعرف مقدار غليانه الداخلي، غاضب عليهم ، تيبسوا فوق مقاعدهم، يضحكون بينما الجنة تستنجد؟ يا للشياطين يا للشياطين ، يستمع إلى تلك العاصفة تأوي إلى رأسه. ينقلب المشهد ثم يراهم في وضوح الشمس ، يرمون الكتب في الخارج ويضحكون!

يحاول منعهم ، يمسكون به ، يحاصرونه ، يتملص من أيديهم بلا فائدة! استيقظ من شروده وهو يصرخ! عامل المكتبة تجهم في وجهه وأمسك برجليه، ثم أتى الرجل الطويل وحمله من كتفيه ، دقيقة من عمر الزمن ربما ثم تدحرج على قسوة الأسفلت، فأصبحت الرؤية أمامه مثلومة مشوشة. حمل مهانته وضعفه، كان فرجة المارة في الشارع، يرَ الأشياء حوله بنظارة مكسورة، ينفض عنه كابوس الجنة المحرمة، وهايشهق الحزن في أوردته ويرتمي في سجن النهار هذا الوجع.

لكنما سطوة الوجع لا تغادر روحه ، لايهدأ لهاث المدينة الأسمنتية الكئيبة ، تتحول إلى فرن ساخن والشوارع تقفر من الأقدام ، هو فحسب هذه اللحظة يحمل جريدة مبقعة بالدهن وأكداس من الحزن تُثقل روحه. إلى أين يذهب الآن ؟ مشى حتى بلغ الباب ، مفتوح كما جرح روحه المعذبة وهذا الألم غيمة من السواد تخنقه، يتردد في الدخول، يتذكر وجبات الضرب .

لا يحتمل الوقوف حائراً ، لا يحتمل تشرد الشوارع ، أنهكه حر الصيف ، فيدفع

الباب ... وجده جالساً يعاقر زبد السكر ، يتدفق الكحول على ملابسه و يخرج الفائض من فمه .

ينظر إليه ببرود ، يحاول ترتيب جملة :

-رررر.. رجعت يا فاشـ.شل، هجرتني أمك الملعونة بسببك ، طبعاً وكيف تتحمل مجنوناً بالكتب مثلك ؟ أترك القمامة التي تحملها، عندي لك هنا كتاب دسم ، نسيت رميه في الشارع .

يفتح صفحات الكتاب ويتقيأ! أندفع نحوه يحاول إنقاذ كتابه ، تلاحقه صيحات استهجان شيطانية ، تتحلق حوله ترقص وتغني ، تشمت وتسخر منه. انتزع الكتاب منه ، حدق في كتابه وغضب بشدة .. (هذا ديوان أحمد شوقي) يا مجرم !

-تصفع أباك من أجل كتاب يا كلب؟

يتصفح كتابه ويزداد حنقاً وشياطينه تغني و تستفزه ، وجد علبة كبريت فوق الكنبة التي يجلس عليها فأخذها بين أصابعه المرتعشة . أندفع نحو أزقة خوفه واحتضنته الشوارع ، لايغيب الصراخ المتمزق خلف باب البيت ، تاركاً خلفه النّار تحتفل فوق وجبة جسد أبيه! يحتضن كتابه الوحيد ، ويصرخ مُردداً في حيرة الوجوه .. (الشياطين في النّار ، الشياطين في النّار ، الشياط ...) .

أوقات طيبة في الجحيم !

الشوارع التي أعرفها لا أعرفها !

نوافذ بكماء مغلقة تطل على الخراب ، أعبر مجازات الخوف ، أنا هنا في الظلام ، تغادرني آخر صباحات عمري ، أنتمي لنافذة حزينة أطل من إفريزها بوجه أصفر جلده مهترىء مبقع ما بين الموت والحياة . « أرجوك « ، هذا ليس بيأس ، حسناً .. إن كنت مصراً على التمسك برأيك ليكن الأمر كذلك . عرفتك عنيداً تهزمني في كثير من الأحيان وكنت أتبعك كالعميان.

تذكر زريبة الحاج عابد؟ الحاج عابد يا كثير النسيان، كنا قد تسلقنا السور وأنت من هزّ الفكرة في رأسي، أنا ولد صغير لا أفهم الكثير مثلك. تسلقنا معاً وكدت أن أقع لولا يدك انتشلتني قبل السقوط حينما زلت قدمي من فوق ذاك السور الحجري، تقبع خلفه حديقة صغيرة بها أرجوحة لا أذكر لونها ، رغبت في تجربتها لكنك رفضت وقمت بتوجيه رأسي إلى ...

يالك من خبيث غريب الأطوار ، تصطحبني حافي القدمين في ظهيرة ملتهبة من أيام « آب « ، جائعاً وأمي تناديني والسمك المقلي يفوتني من أجل مشهد بقرة يسيل لعابها القذر ، يصعد ظهرها ثور زائغ العينين ، يرتعش خواره صاخباً. بقرة و ثور ، على الأرجح في ظني الطفولي آنذاك يمارسان لعبة غريبة اكتشفتها لأول مرة ! حسناً اضحك ، اضحك قدر ما تشاء لكني لا أستطيع مشاركتك هذه البهجة. يومها نزلت عن السور وأصبحت أراقب الدجاج و القطط و العصافير و حزرت ذاك اللطف الذي يعتري صوت أبي والأوقات التي يقضيها في الحمام، يخرج وإذا به يكثر من ابتساماته البلهاء نحو أمي، ليلة الجمعة من كل أسبوع ، كلاهما في غيمة حلم تشتعل بهما الرغبة، ثم أطرد من الحجرة ، لكن حفلة الاثنين لم تفتني! ماذا أفعل؟ هذا أنا « إبليس « وعمري لم أفلح ، كما تنبأ جدي!

« شكراً « دخنت سيكارة قبل أن تأتي ، اتركني فقط أتحدث . أتعرف كم أحدثت في حياتي من إنقلابات ، أووه مندهش لكوني أستعمل صيغاً كلامية تخص المثقفين ، ربما هذا بسبب مكوثي الطويل هنا ، أصبحت أقرأ كل شيء. اسألني عن معدلات الفقر في العالم العربيّ أو.. تصور أستطيع إخبارك عن تقارير صحافية غربية تكشف حجم موازنات التسلح العربي ، بالرغم من أن (.....) لن يطلقوا طلقة مدفع واحدة ضد إسرائيل، صاروا يتفرجون على فلسطين وهي وحيدة تُذبح ، سأخبرك أي شيء .

الحمد لله أنك أتيت، تعرف ؟

كانت ليلة مختلفة، سرقنا السيارة معاً ،يدك الساحرة الماهرة ماذا فعلت؟ سرقة السيارات مختلفة كلياً عن سرقة الحمام، أنت تتذكر التفاصيل جيداً ! لا ، لم نذهب إلى مزرعة سمير ، تلك مغامرة من نوع آخر ، شارفت السابعة والثلاثين وكأنك تعيش بذاكرة عجوز.. ذهبنا إلى أحد أزقتة العاصمة . جيد أنك أنعشت هذه الذاكرة الغبارية المتعبة مثل وجهك ، نعمم وقابلتنا فتاتان وفي المكان الذي وصفته تماماً.

يالك من وغد رائع أذقتني طعم اللحم الحرام! بسببك طردتني القرية وأنت أصبحت خريج سجون وأفضت من خيرك عليّ! قالوها : (الصاحب ساحب) . أنا لم يدر بخلدي تجربة جريئة بكل تفاصيلها تحدث لي فتجعلني أضحك على قصة قديمة أيام مراهقتي. قصة صغيرة وتافهة وكنت أكتم سِرها معتقداً بأنها شيءٌ عظيم. أنتظر لا تقاطعني.. اتفقنا أن تسمعني حتى النهاية .

صدقني وأنا أتحدث إليك هذه أفضل لحظات صفائي الداخلي الآن ، أتذكر تلك الصبية الفارعة الطول، لا أذكر لون عينيها لكن أعرف مدى ما انتابهما من ذعر ، غافلتها حين خطفت قُبلتي الأولى وهربت! لايُهم ؛ قلت لك بأنها قصة تافهة مثل كل ما مضى من حياتي ، مليئة بالنذالة والضياع. هل تتذكر سؤالك لي عن الفتاة ؟ تلك الفتاة « نتاشا « ، كنت تسألني عن طعمها ، ليلة لا تنسى ، كانت الملعونة

مذهولة بما صنعت وأعتبرتني « إله « أغريقي يمتلك قوة خرافية! ذاك اليوم قلت لي : أفرح ولكن ... لكل شيء ثمناً في هذه الحياة !

حكمة نقية من فم نجس . أرجوك أجّل كل غضبك إلى ما بعد انتهائي ، فأنا أحتفظ لك بمفاجأة ستجعلك مغفلاً كبيراً.

أنا لا أستثني نفسي ، مثلك تماماً مغفل سأدفع الثمن وحاول بعدها يا صديقي إقناعي بما تبقى من أمل حتى أعزي نفسي.

ماذا ؟ أنا مجنون! عندك حق ، أنا مجنون يوم عرفتك وصدقت بأنك صديقي، مجنون لأني سرت وأنا أرافق ظلك أينما تكون .

لا أهتم بما تقول لأني، ش ش ش، مثل رماد تشتته الريح ها ها ها . يا لها من مفردات أدبية رائعة تتدفق على لساني « رماد تشتته الريح «! نعم كما تشتت المجموعة التي كسبنا منها الذهب . « نتاشا « وبقية الفتيات وغرف الحرام القذرة التي صنعت عالماً وسخاً كنا نرقص في وحله ونضحك ونثمل ونحنُ ... أعد ما قلت، أنا أرفس النعمة؟!

مُجمد فوق هذا السرير اللعين بفضل نعمتك السخية ، أصبحت مثل كلب منبوذ لا تأويه الأرصفة. ماذا ؟ من قال لك أني سأخرج من هنا بعد استكمال العلاج؟ أريد أن أضحك لكن لا وقت للضحك صدقني، لتعرف أننا دخلنا مغامرة خاسرة ثمنها ليس من السهل قبوله يا صديقي ... « نتاشا « أخبرتني قبل ليلة من مداهمة الشرطة للشقة ، أخبرتني .. بأنها لا تدري متي تموت؛ فهي مصابة بالإيدز!

نعم يا صديقي نعم ، وجبة سامة تكفينا نحن الأثنين!

لا أهتم إن كنت سأموت قبلك ، النهاية حتمية للولد المشاغب والعاق، هذا ما لا أستطيع تغييره ، والآن يا صديقي المحترم ألحق عمرك و تأكد من طعم لحم حلوتنا « نتاشا « وماذا فعل بجسمك ؟! تمنّ لي أوقات طيبة في الجحيم ، وسأحرص على حجز مقعدك الخاص بجانبي ، نعم بكل تأكيد سأموت و ستلحق بي ، أخرج من هذه المستشفى لعنك الله ، أخرج أخرج.

اجراءات شكلية

كم هو السير متعب وسط هذه الأحياء التجارية والبنايات المتعملقة في الهواء وحشود الناس الغرباء. هذا الصيف عدواني جدًا، تتقطع أنفاسي وأنا أقرأ اللافتات المعلقة، مطاعم، نوادي ليلية، دكاكين، مخابز، دور طباعة، مؤسسات رسمية، والسيل اللوني المتدفق لا يتوقف كحال قدميّ المربوطة بالشقاء، آه ه ه كم أنا متعب. أبحث عن هذه المؤسسة (الكـ..) خيرًا لي أن أطرد شيطان التشاؤم من ذهني و... وماذا بعتد هذا التوهان، ضاعت مني الأمكنة، لأسأل هذا الرجل، قد فرغ لتوه من التبول واقفًا وكان نصف متواري خلف حاوية النفايات، رائحة بوله تصلني اكثر فضاعة من رائحتها.

سألته .. أتعرف موقع مؤسسة النجوم للتنظيفات؟

بقي صامتًا وعلى وجهه ابتسامة بلهاء يطالعني بها؛ ظننته لم يسمعني فكررتُ سؤالي منتظرًا جوابه. هيئته رثة فتسرب الشك إلى نفسي بأنه مختل عقـ... فجأة ضحك في وجهي بلا سبب، خلع سرواله وراح يرقص عاريًا! هربت منه وعبرت الشارع حتى الرصيف المقابل، ألهث متعبًا وأجدني مضطرًا لتذكر المجنون الذي رماني بحجر في أحد أحياء قريتي ذات يوم، شج جبهتي ورقص فرحًا ولملم ثوبه في فمه وهرب.

أثر تلك الحجر لا زال محفورًا في جبهتي. أوه تيار هوائي بارد يهبط عليَّ من .. من أين؟ ألتفت ورائي ، واجهة زجاجية أنيقة مؤطرة بالألمنيوم وحارس أمن يسألني عن سبب وقوفي. أخبرته عن بحثي المضني بلا فائدة عن مؤسسة النجوم والتي لا يبدُ أني سأجدها نهارًا! ضحك الحارس بمرح غريب ولم أفهم شيء إلا حينما رفعت بصري عفويًا إلى أعلى وقرأت اللافتة البلاستيكية ودخلت. دخلت مكاني المقصود على استحياء. طبعًا، فسروالي الأسود قد علق به غبار الشوارع

وقميصي يرتع فيه العرق الفاضح الرائحة وأوراقي محبوسة في ظرف رمادي رث. أهذا شكل واحد يعرض نفسه باحثًا عن عمل؟

مع هذا كلي أمل، طردت وساوسي، معنوياتي في حاجة إلى التفاؤل، على الأقل مطمئن بعض الشيء، فأنا لست كما تظنون، مجرد طالب عمل عادي يطرق دروباً مظلمة. أبدًا، فهذا سلاحي معي يرقد في الظرف، ورقة بيضاء ممهورة بشعار وزارة العمل، ترشحني بسلطة القانون لشغر وظيفة منظف عام محترم. نجمة إلى الأسفل كملاحظة ، برجاء التسهيل للمواطن واتخاذ ما يلزم من اجراءات . مجرد خطوات قصيرة تفصلني عن اللافتة الصغيرة الملتصقة بالباب الخشبي الأنيق المفتوح (شؤون الموظفين) . آه ه ه، أزفرها محلقة من صدري وأستعد لفرج قريب كلمح البصر، وظيفة والسلام، تأوي غربتي وانسلاخاتي المتشتتة في جحيم هذا العالم. راقبوني وأنا أطرق باب الحجرة ... فتح فمه ليستقبل الشطيرة، أعادها متضايقاً إلى كيسها الورقي، حتى بدون الاكتراث لتحيتي. حتمًا أزعجته، سلمني ورقة سجلت على سطحها بياناتي وبعض أحزاني الصغيرة. قرأ الترشيح الرسمي وهز رأسه فقال:

-تستطيع ان تعمل عندنا لكن ...

بلعت ريقي العالق بسقف حلقي متوجسًا من غصة (الـ ....) لكن ، على ماذا يستدرك بهذه الكلمة الكريهة.

-لكن .. ترشيح توظيفك يحتاج إلى بصمات وشهادة حُسن سير وسلوك من وزارة الداخلية، لا تخف اجراءات شكلية لا غير ويتم توظيفك، نمهلك لأسبوع حتى تتم الاجراءات.

تركت المكان، توعدت صيف هذا اليوم بمزيد من التحدي، أتحسبوني رخو وأستسلم بسهولة، أبدًا. من هذه اللحظة أنا فاعلها، نعم سأبلغ وكر إبليس إن لزم الأمر ولن تقهرني هذه المدينة. شوارع من جحيم تركتها خلفي وكلي عزم، مستمرًا أمشي وتكاد قدميّ تذوبان على سخونة الأسفلت، توهان آخَر يطحنني

بلا رحمة. ها أنذا صامد ، الوظيفة في جيبي ودعوات أمي معي. لا أدري لماذا سوء الحظ يلاحقني؟ ولا سيارة واحدة تتوقف لتنتشل هيكلي المحروق في الشارع. كشك مرطبات متواضع على ظهر الرصيف أغراني بالتوقف، لا ضير من ارواء عطشي بعصير رخيص الثمن، وهذا مقعد فارغ في الظل، بلا شك ينتظر تعبي. دقائق قليلة أمضيها ريثما استجمعت أنفاسي، المشي أتعبني لكن توفير نفقات المواصلات يساعد جيبي المهلوك قبل أن يلفظ آخَر دينار بحوزتي أنفاسه الأخيرة. كما يقول أبي .. الاقتصاد نصف المعيشة.. بالأحرى نحن الفقراء نحاول تطبيب بؤسنا بالكلام وجيوبنا يملؤها التراب! واصلت الطريق غير عابىء بأنهار العرق التي فاضت مني ثم أتضح المبنى المهيب في محيط بصري الزائغ. الحمد لله ها أنذا وصلت، أخيرًا وصلت.

لكن شعرت على نحو مباغت بهزة خوف سكنت جسدي المتعرق ولا أدري كيف توقفت؟! جمدت عن الحركة ! بالطبع رواسب قصص الرعب التي تحيط بهذا المكان. على الأرجح الناس ضخمت قصصها من الخيال حتى خلقت الأساطير بشكل مبالغ فيه. وزارة الداخلية، جهاز حكومي في خدمة الشعب لا أكثر ولا أقل، هيا هيا لا داعي للخوف، لست طفلاً ترهبه أمته بالعسكري حين تعجز عن لجم مشاكساته. تعوذت من الشيطان الرجيم وبسملت خافت الصوت ثم كلمت شرطي البوابة الضخمة عن طبيعة معاملتي.

أرشدني إلى المبنى رقم ثلاثة وأكرمني بإبتسامة لطيفة هدأت بعض خوفي. وها أنا في قلب الحصن! أسوار متطاولة مسيجة بالأسلاك الشائكة وعساكر مدججين بالسلاح متجهمي الوجوه تحدق في خلق الله. فوجئت به يقترب مني وقبض عليَّ بغلظة وخاطبني:

-أهلاً أهلاً لقد تأخرت!

ما بين الدهشة والخوف أحتبس الهواء بصدري والكلمات تحت لساني. ماذا يفعل هذا الشرطي؟! كبل يدي اليمنى وأقتادني إلى غرفة مجهولة. حررني من

القيد ودفعني إلى جوف الظلام، لكأنني وقعت في قعر حفرة عميقة، ظلام رهيب صادر مني ضوء النهار. لطفك يا إلهي، ماذا حدث لي؟! بسملت في وجه الظلام عدة مرات، يكاد يتوقف من فرط الخوف قلبي، هذا السكون الجاثم أكثر شيء يحرق أعصابي الآن. حقًا أنا في غرفة أم تم رميي في حفرة قبر؟ بلا مقدمات أشتعل عتود ثِقاب قربي وخاطبني شبح بإسمي فجفلت ..

-أسعد سعيد الجنوبي حقاً هذا أنت! أهلاً برجل التضحية والنضال.

أستنفذ عود الثقاب ضوؤه الشحيح ولازال الغريب يكلمني بحماس حتى قال:

-عرفناك رجلاً صلبًا فلا تستسلم لهؤلاء الجلادين، كلنا معك ومطالبنا الدستورية أصبحت تحرج الحكومة في الخارج، أصمد يا صديقي أصمد.

فجأة فُتح الباب وتفجر الضوء في وجهي وأمتدت منه يد سحبتني بقوة. هو ذات الشرطي الذي قذف بي إلى هنا، أقتادني ذليلاً مشحوناً بالدهشة والصدمة إلى غرفة أخرى قرع بابها وأدخلني، أدخلني في فم المجهول.

في مواجهتي ضابط، ينام فوق كتفه نسر ذهبي أشد لمعاناً من النجمة، يبدُ عليه كان ينتظرني من مدة، آه ه ه ما لمصائبي لا تهدأ؟ ما الذي أوقعني في هكذا ورطة؟ ومن غيره .. (اجراءات شكلية) ورطني وها أنا الآن قلقاً حائرًا وكل حواسي تغرق في الفوضى، مرتبك من تحديقه الصامت، يتفرس في خلايا وجهي المسكين، لكأنه يحاول قراءة الخارطة الجينية في عيني! أتظنوني أبالغ؟

هاتين الرماديتين تحمل نظرات شرسة تقدح شررًا من وجهه، تكفي لزرع الخوف في أفئدتكم المسكينة لو تعرفون.

حظي الأغبر مع تلك المؤسسة المشئومة ولن أطول شيئًا غير هذا العذاب وصمته يوشك يفترسني في لقيمات متمهلة. قدميّ تتصلبان من الوقوف الطويل وما أزال أجهل كل هذه المصائب التي تتفجر في وجهي.. لماذا أنا؟! تناول من طاولته علبة سجائر، أشعل واحدة، نفث دخانها في شحوب وجهي، مشى خطوتين أو ثلاث وأعطى وجهه للنافذة مبتعدًا عني .. تنحنح في سكون الحجرة

ثم به ينقض عليّ يمسكني من ياقة قميصي ..

-أنتم حشرات تحمل قاذوراتها أينما ذهبت.

أزددت خوفًا، يغرس عيناه في جسدي المرتعد وتناول من الطاولة بضع أوراق نثرها بصفعة سريعة في وجهي.

-قاذوراتكم رُدت إليكم، تفاهات وشعارات سخيفة تشوهون بها سمعة الحكومة. ولتعرف أن كل تنظيماتكم الحزبية المشروعة وغير المشروعة، هه.. مجرد دكاكين سياسية فاشلة، نعرف أدق أسرارها.

ايقنت فداحة المأزق، لساني متخشب أو فقدته في الغرفة المظلمة لا أدري، لكن حررته بجرأة وانا احاول التماسك..

-أنا .. أ أ

-أنت مجرد أداة صغيرة وحقيرة في أيديهم، هل تفهم؟ والمجموعة اعترفت، لا تصدقني حسنًا.

عاد إلى طاولته، دعس سيجارته في المنفظة التي تشابه وجهي البائس، دق جرس أسفل درجه. حضر العسكري فتلقى الأمر في الحال..

-نزيل رقم ٢٢٣

رأيته يرمي على سطح الطاولة ملف ورقي أحمر، قرأت عليه رقم ١١٣ ، ثم ألتفت إليّ وقال:

-ملفك عندنا موجود، مليء ببطولاتك ونعرف كيف نحولها إلى هزائم في أقل من أربع وعشرين ساعة.

طرق على الباب، يدخل العسكري بعد تلقيه الإذن وفي قبضته الحجرية القاسية شاب، شوهت وجهه كتدمات زرقاء متفرقة. قلص عينيه وصرخ بصوت ضعيف..

-انه هو، هو(الـ..)

فجأة وجدته كاد يندفع نحوي يريد ضربي، لجم الشرطي اندفاعه وحجبه عني.

# # #

كم ساعة تجرعت مرارة العذاب؟ لا بد أن هناك ثمة خطأ فيما حصل، ما علاقتي أنا بمصائب السياسة وصفقاتها، تركني واقفاً وشرع يتفقد ملفي ولم يترك لي الفرصة وأنا أحاول شرح الأمر. كيف أشرح هذا الكابوس الجاثم على صدري؟! رن جرس الهاتف، أحسست بأن بخار المأزق ينفلت من قدره ولم يكذبني حدسي، بعدها كل ما سمعته عبارة عن لاآت غير مصدقة ومجهولة لم أفك من طلاسمها شيء حتى قال:

-قبضتم عليه، مستحيل.

أسعد سعيد الجنوبي.. اللعنة إنهُ معي هنا قيد التحقيق فكيف..؟

لحظة لحظة سأتفقد شيء، حتى أتأكد فقط ..

مشى إليّ سريعاً وحدق في وجهي ثم دقق النظر في هويتي، تمعن في وجهي ثم أمسك ياقة قميصي ، تمتزق سكون الغرفة بلا هوادة. أصابعه الخشنة كانت تتفحص ظهري العاري تبحث عن ماذا؟ أيريد رؤية الشامة أعلى مؤخرتي؟!

تركني أخيرًا أجلس على سطح البلاط ، ألتقط أنفاسي، عاد لسماعة الهاتف يصرخ مهتاجاً..

-أغبياء.

وما هي غير دقائق في لحظة تغرق، تطول لتصبح دهرًا يأكلك، بدأت أستوعب ما جرى. وقعت على إسفلت الرصيف من أثر الدفعة التي تلقيتها من الشرطي وهو يطردني من بوابة الوزارة بعدما حررني من قيدي، بقميص ممزق وظرف رمادي لعين مثل حظي. يا لها من مصادفة جهنمية كارثية كريهة الطعم والرائحة.

وجدتني أهرول مبتعدًا تحت رداء المساء وأتنفس حريتي.. أفرغت كل غضبي المحبوس في هذا الظرف الرمادي وشتمت موظف المؤسسة، لو كان هنا لمزقته مثل الظرف!

الركض في شهوة النّار[٣]

خيط فاصل ما بين الجنون و اللاجنون ، الغرق و اللاغرق ، الظلمة و اللاظلمة ، الضياع و الـ.. لحظات انتظار رنين الهاتف على الطرف الآخر تتكرر كوخز المسامير في جسدها المرتجف ، تمسك السماعة غير آبهةٍ بصاحب القهوة الأجنبي ، يلتقم بعينيه الوقحتين جسدها الجميل الرقيق .

ترجع تتفقد هاتفها الجوال ، رصيد أنفاسه المالية ذابت مثل كل شيء حولها في عينيها يحتضر . هي مضطرة حاضرا لاستعمال الهاتف العمومي ، تتحمل الدقائق القادمة و لا من مجيب ، تحاول من جديد ، هنا مصلوبة أمام عيون الرجال ، تنهش من جمالها ، تتبدى أمامهم (شاورما) يصطليها الحر و توزعها رائحة عرقها ، فاضحةً مباحةً !

الرنين ثم الرنين ، دب بها اليأس ، أقفلت السماعة بانفعال ، تهدلت بعضاً من خصلات شعرها المصبوغ بالأشقر ، أخفتها تحت قتامة لون « الشيلة» الأسود كما تخفي خيبة وجعها بعدما نكث وعدهُ الثامن ! مخادع ، يتهرب بسبب و بلا سبب ، هاتفه مغلق أو يرن في فضاء الصمت البغيض ، لا قيمة لوعوده المراوغة ، كهذه العلاقة البائسة . عصرت حقيبتها و خنقتها عبرتها حزناً .

لجأت مع حزنها لأقرب زقاق وسط « المنامة » تبدو اليوم ذات وجه يابس القسمات لا يرحب بها أو يبتسم كي يخفف من مصابها . نظرت لحقيبتها الجلدية ، صفراء و بحلقات معدنية مذهبة الجوانب ، هه ! هديته الرخيصة المقلدة ، ذلك الفخ الآثم ، تباً له ، كان يحوم مثل الذبابة حول قطعة الشوكولاته ، وثقت

٣ - تحول عنوان هذه القصة لمجموعة قصصية مستقلة صدرت في طبعتها الأولى عن أسرة الأدباء والكتاب ، البحرين ٢٠١٥ / ثم صدرت في طبعة ثانية ٢٠٢٢ من مؤسسة أبجد للنشر والترجمة والتوزيع، العراق.

به ، أقسم بربه و بأنه لا يستطيع العيش من دون أنفاسها التي تمده بالحياة ..
دخل البستان ، قطف الثمار ، تعطر بمسكها وما أحلى الحليب المجاني !
كرهت الحقيبة و مُهديها ، ، تستخرج من جوفها صورته ، تحدق في محاولة استنطاق نظرته الكاذبة ، هذه البراءة المراوغة الممتزجة بالخبث ، تحدق فيه تتأسف لحالها . تركها على رصيف الإهمال، خوفها يتراكم كما قلقها من غثيانات الصباحات الماضية .
لِم لا تجري اتصال آخَر؟ تجاهلت نظرات الرجال ، وضعت عملة معدنية جديدة في الهاتف و أنتظرت ..
-أهلا ، أهلا فاطمة ، أنتِ في عملك بالمستشفى ؟
-أخيرا تذكرتِ أن لكِ صديقة بهذا الاسم ؟
-ساعديني ، وقعت في ورطة و أنا ... هذا الكلام لا يُقال على الهاتف و .. لا يهم ن مع السلامة !
أقفلت السماعة و هي تزجر غبائها ، كادت توقع نفسها في مطب آخر . مشت مبتعدة تخترق زحام الشوارع ، تبكي و سط الضجيج ، وسط آلامٍ تتراكم و تذيقها معنى الخسارة و الضياع ، لكن .. أتكون كل هذه الدوائر المفرغة من العذاب ، وهم يحجب الرؤية عنها ؟ وهم كلماته المعسولة و تصنعه المنافق و الهالة الخادعة التي يحيط نفسه بها . تحاول ازاحة الأسئلة الكريهة الطعم ، لكن هذه الورطة أكبر من أن تُزاح بسهولة ، هي تعرف ذلك ، و حان موعد الحسم ، حقيقة ما حصل ، « الفأس وقعت في الرأس « ! لكن ستفعلها و تزج بنفسها في محرقةٍ أخرى إن كان هذا سيدمر الطرف المقابل !
مسحت دموعها ، سالت مختلطة مع بقايا الكُحل على خديها ، هنا قرب باب الصيدلية الخارجي .. إعلان ورقي ملون يعطها فكرة جيدة تهدىء هواجسها ، الإعلان لفتاة شقراء تبتسم بخجل شهواني مع بطن مكورة لا يستر انتفاخها شيء مع تنورة قصيرة .

جيد أنها لم تقترب كفاية من الصيدلية ، هو ذا بالداخل ، شعره الأشعث اخبرها عنه ، كان يعرض على الصيدلي صورتها ، وهذا الأخير يهز رأسه لا يعرف صاحبة الصورة . جيد أنه خرج سريعاً بعينين غاضبتين تبحثان في الشوارع و زال شره ، « شريف « هذا الشقيق الأهوج ، كم تكرهه . عدلت عن فكرة شراء مؤشر فحص الحمل ، أبتعدت عن الباب ، و مضت بعيداً بقلب خائف مخذول و وحيد . الأختفاء ليوم واحد كارثة بالنسبة لأي فتاة ، طبعا هي الآن تدرك وحل المغامرة و الركض في شهوة النار ، يعقبه دنس النفس الطائشة و حُفر المعصية البلهاء ها تضحك في وجهها . لا فرق الآن ، لا فرق فقد صارت كالماعز الشاردة من حضيرة راعيها ، « شريف « من بعد أن يظفر بها فستذبح و تُسلخ !

قررت ، لا رجوع إلى البيت ، تعبت من المشي ، دخلت أقرب حديقة عليها تستريح في اخضرارها ثم ترتب أفكارها المشتتة . أختارت مقعداً منزوياً تحيطه كثافة الأشجار و ظلال المكان ، ألا يبدو للحديقة حزنٌ يشبه حُزن روحها الجريحة ؟ تحاول الهرب من ذكرياتها مع هذا الشقيق . تتأمل حركة الناس في الحديقة ، تتجمع فيه الوجوه ، مجهدة ، مبتسمة ، مكفهرة قليلا أو غير مكترثة و هنا .. طفلة صغيرة تحمل دميتها و تركض نحوها ! طفلة حلوة عفوية اللسان ، تدخل القلب بلا استئذان ، تكلمت :

-عروستي الجديدة أليست جميلة ؟!

-أوه يا حلوتي ، أنتِ أجمل منها بكثير ، من اشتراها لك ؟

-بابا قدمها لي هدية في عيد .. عيد ميلادي ، أنهُ هناك مع الماما ..

كانت تشير بأصابعها الضئيلة إليه ! تصعقها المفاجأة التي لم تتخيلها في لحظة قنوط و يأس ، حيث تهرول بها الأقدار إليه من جديد . ها هو تقذف به الأرض بعدما توارى عن الأنظار ، يتأجج غضبها و تشتعل نيرانه . واضحٌ الآن في عريه من كل ترهاته و أكاذيبه ، ينفلت زمام عقلها ، يغلي الدم في رأسها ، أنتظرته حتى جاء ، كان يثرثر في هاتفه الجوال ، لم يلتفت إليها بعد .

-أهلا كمال . ما بك ، رأيت عفريت ؟ تريد الهرب مثل أي فأر وغد؟!

-.....

-وعدتني بالزواج ثم هربت !

بدا مرتبكاً لكنه تماسك و استوعب المفاجأة ثم رد :

-مجنون من يصدق شرف فتيات الرصيف الرخيصات ، أذهبي عن و ورطي غيري بوساختك !

-هذه زوجتك ؟ مسكينة لا تعرف ، تعتقد أنها تزوجت رجل يُعتمد عليه ! أنت يا ملعون ليس إلا حيوان شهواني ، زير نساء قذر.

أشتعل غضبه سريعاً فرفع يده ، لكنها تفادت الصفعة ، سيطرت على شره ، أمسكت يده ، عضته في نكرانه و كذبه و وقاحته ، ، الناس تتجمع في المكان ثم جاءت الضربة مباغته . كان هو أسرع هذه المرة ، حملت طاقة رجل محبط فُضح أمره . سقطت في مكانها ، كأن كل شيء تجمد في فجوة الصمت و أظلم المكان هنا في مسرح الحزن .

# # #

المكان هنا يرتدي حُلة من الضباب ، تفوح من جنباته رائحة المطهرات ، و هنا أشباح بيضاء تتحرك في محيط الصورة المهتزة ، أسرة حديدية و ستائر يتسلل منها نور الصباح . هل هي في مستشفى ؟ فقط لو يخف عنها التشويش الضبابي و تتأكد مما تراه . هذا وجه صديقتها فاطمة أم أنها تتخيله وحسب ؟

-منال ، الحمد لله على السلامة حبيبتي .

-فاط.. فاطمة ، هذهِ أنتِ .. أنتِ فاطمة ؟

-نعم ، صديقتك الممرضة فاطمة .

-سوف يأتي ، ربما يهاجمني ؟ سيضربني !

-على مهلك منال ، لا تخافي . أنتِ هنا بأمان ، بعد قليل سيأتي شرطي حتى يسجل أقوالك حول الاعتداء .

-ماذا ؟

-لم تنزفي الكثير من الدم ، الحمد لله و لكن عوضناكِ ..

-ماذا ؟ هل سأموت ؟

-نعم ، موتي من الفرح ؟! تتزوجين و تحملين و لا تخبريني يا بخيلة؟

أستيقظت من بقايا كابوسها ، أرادت النهوض فوجدت أمامها ممرضة محلية تمنعها من الحركة و تكلمها بهدوء ..

-لا داعي للحركة أو القلق منال .

-أنا في المستشفى صح ، ماذا حصل لي ؟

-لا داعي للقلق أخت منال ، تم القبض على زوجك السابق ربما و هو الآن في مركز الشرطة .

-يعني ...؟

-الأمور بخير ولكن ... كنتِ في شهرك الخامس و للأسف فقدتيه !

.....-

-إنقاذ حياتك أولوية عندنا ، لم أكن أريد إزعاجك بهذا الخبر ، لكن كنا ننتظرك تستفيقين بعد أربعة أيام . الحمد لله على السلامة منال.

أنهمرت دموعها و غزاها حزنٌ آخر ، قدمت لها الممرضة علبة المحارم الورقية ، حاولت تجفيف هذه الدموع ثم نظرت نحو ضوء النهار و أختلط حزنها بالضحك !

في زمن الرماد.. حقيبة

بدى الشارع نابضاً بالحركة والزحام والدخان الخانق منتشرًا يغزو رئتيه يكح ، يكح متشنجاً تبرز عروق رقبته التي داهمتها تجاعيد السنون. يبحث عن منديلته في قعر جيبه الأيمن من هذه البدلة الكاكية العتيقة التي جاءته هدية غالية من ولده « سميح « الذي أختار ضباب غربة « لندن « حتى انقطعت أخباره.

نسيه فوق منضدة الحلاقة كما نسي ضوء الحمام مفتوحاً في العدم!

المهم هذه اللحظة، المهم أكثر من أي شيء آخَر.. الحقيبة؟! لكن ينبغي إيجاد مكان مناسب مكتظ بالناس. ختطوط المشاة فوق الإسفلت المرصوع والرصيف البائس القذر، أنسب مكان تحتشد فوقه الأقدام! يستحقون المفاجأة بكل أبعادها. لن يخسر شيئًا، ببساطة حين تتراكم الخسائر نموت في دواخلنا، إذًا فليحول هذا البؤس إلى شظايا وكل المدينة ستعرف الخبر.

لحظة مهادنة غفلتهم أنسب ما في الأمر، حين تفجر المفاجأة جسدها الملغوم فوق الرصيف، ورئتيه تتعب من أوساخ الدخان لكن لن يبالي بشيء لأن النتيجة واحدة.. أوه يا لرعونة الفكرة تبعث على التقزز من هذا الزمن الرديء، المشوار كان متعبًا وأكثر من هذا جلافة أخلاق بعض سواق الأجرة. نبهه بلهجة هادئة إلى ضرورة إطفاء سيجارته، لكن صمت الآخَر وترفعه عن الرد زاده غيضاً، فطلب منه ثانيةً التوقف عن التدخين.

تباً لبؤس هذه المدينة الأسمنتية العاصية، جاءت الفرملة نزقة على الإسفلت، ثم أخذ يمسح شاربه الكث وفي ملامح سحنته المتوعدة بالشر برقٌ يتوثب ومزاج حانق، آثر الانسحاب بعد أقل من ثلاث دقائق من ركوبه، قضى نصف المسافة سيرًا في شوارع وسخة حزينة. بانت اللافتة الذهبية المحفورة على

سطح المعدن النحاسي مصلوبة على جدار رخامي أخضر مكتوب بخط أنيق (دار الدروب الخضراء للطباعة والنشر والتوزيع).

إنها الزيارة الثانية ولايبدُ أن هناك ثمة أ... احباطات النهار. سيرى كيف تبدُ الأمور هذه المرة وهو يصب لعناته على هذه الدار. يتذكر تقضيبة المدير الشاب بوجهه في الملف حين سأل..

-هل أنت واثق من عنوانك؟ أنا شخصيًا أتحفظ عليه. لا تستغرب، روايتك (زمن الرماد) ذات لغة رصينة وأحداث مشوقة و.. لكن المضمون النهائي حزين جدًا وجاد جدًا، أنا أبحث عن فرح الكتابتة التس تُؤنس القارىء وتشعله بالحماس، ومضامين روايتك تذهب بعيدًا في شعارات النضال والحرية ومحاربة الصهيونية. هل علينا أن نعيش طوال حياتنا قضايا مصيرية عربية؟ نملأ بها صفحات الجرائد والكتب وكراريس الأطفال ولافتات المضاهرات الجماهيرية. يا أستاذ رياض لا أستطيع نشر هذه الرواية!

-للأسف أنا لا أوسخ الساحة الثقافية ولا عقول القراء بروايات الجنس الرخيصة التي تباع على الأرصفة وفي أكشاك السندويشات.

ويرمي نفسه في صخب الشارع. يسير للأمام، ثمة أصوات غامضة تتعارك في داخله المخنوق.. ولِمَ تبقَ هذه الاختناقات أسفل السطح؟ ما هو إلا انفجار واحد، الحقيبة جاهزة تسجن في جوفها غموض صامت ومخيف بالنسبة إليه. لا حل آخَر مدينة متباهية يجب أن يجاريها، يداويها وينفض غبار سكانها. وحدها الحقيبة تنتظر ساعة الصفر؟ يا لها من مدينة، ما هذه إلا مملكة وحوش تعيش في القاع، تتناسل وتغني وتسكر، تتعبد وتزهد أو تشرك وترمي قيمها في زبالة العصرنة. الآن ليرتوي نهم العفن من الريح التي ستعصف بهم وتفقأ أعينهم.

مدينتهم ستعرف، ستعرف مفاجأة من العيار الثقيل! لولا شرطي قلق النظرات، تقدم بضع خطوات كافية لإرباكه لكان الآن ... فهو يكره أصحاب

البدلات العسكرية، يحكمون دول العالم الثالث، أغلبهم يتغنون بانتصارات زائفة على الإمبريالية المتوحشة ثم يسرقون خبز الفقراء ابتغاء محاربة العولمة ومواجهة التحديات الحضارية! الشرطي يحدق بنظرات فاحصة ثم يقول:

-أنت تقف على الرصيف من مدة، إن كنت تطلب سيارة أجرة إنتظر عند محطة الحافلات هناك، وقوفك هنا يعرضك للخطر.

-شكرًا لك.

-إنتظر لحظة.. نسيت حمل حقيبتك.

متخاذل ويكاد يغوص في ملابسه، رفع الحقيبة وتوارى بجوف أحد الأزقة يراقب الشرطي وقد اختفى من الشارع.. أعترضه متسول قذر الملابس والرائحة يسير بساق خشبية. لِمَ لا يعطيه الحقيبة وبشيء من التفصيل يشرح له أمرها، لكن ربما لا يستوعب شيء هذا الجاهل. قمع الفكرة وأحرقها وتجاهل وجود المتسول ومضى ثانية نحو الرصيف. مكتظًا بالمارة كما تركه منذُ قليل، هذا جيد فلا تزال الحقيبة جاهزة ولسوف تستولي عليهم المفاجأة، لا بأس بهذه المغامرة وإن أضرت بقامته الأدبية المتواضعة في المدينة الأسمنتية الكريهة. ومنذ متى هو يملك هذه القامة المزعومة؟ يعرف نفسه تكبر في هوة الانسحاق المجاني، لا أفضل من لحظة تريث قد تعيد صوابه.. لكن أي صواب؟ فشل في بيع روايته وشبح الإفلاس يطارده، لا عقل في رأسه الأشيب ولا رجوع عن ما قرره ليلة البارحة. قضى الليل بطوله يكتب حتى الصباح.

الآن لا يهتم ماذا ستفعل الحقيبة في مواجهة اللحظة الحاسمة إن كان هذا ما يستحقونه، فوق الرصيف وكل هؤلاء المتأنقين الفارغين وفلول المتسكعين، عليهم اللعنة يستحقون ذلك! هذا هو الوقت المناسب، ذروة كل الأوجاع المتراكمة التي لا دواء يشفيها، الآن ستـ ..نـ..فـ..جـر!

تومض الإشارة باللون الأحمر، حريق ضخم يشعلكم يا أوغاد، الآن يجد الأقدام محتشدة على جثة الرصيف ، الآن وسط مدينة ترضع أناسها الشقاء

، الآن عضلات وجهه متمردة كالنَّار ثم .. فتح الحقيبة. ثلاثة كتيبات ورقية من جوف الحقيبة، تركها تقتعد الرصيف أمام أعين المارة في مدينة الرماد. شاب متأنق شده الفضول فشرع يقرأ بصوت واضح النبرات..

-كيف تكتون انتهازيًا؟ استراتيجيات الخداع المعاصر! فن الذب والمراوغة! حسنًا سأشتريها كلها، كم سعرها؟!

سرعان ما احتشدت الناس حوله، تتخاطف من يتد الشاب بضاعة الحزن يشرب من اوردته وهي تضتج، لا سبيل لكتمانها.. الصرخة تدوي في جرحه وكذا حرائق الانهزام يعانقها باكيًا من حاله في جحيم الغابة الأسمنتية التي سحقته أخيرًا حينما صار مثل سكانها رقمًا مكررًا وحسب!

مدينة لا تشتري الملح ؟!

تراقبها ببصرك الواهن. المدينة التي تأكل البحر، بلدوزرات جبارة بمخالب حديدية وأكوام من الرمل تتقيأها الشاحنات التي لا تتوقف. تراقبها الآن، بحيرة الملح ومشاوير التعب وطحن العمر المحمل بالهم وهذا الصباح الرطب. كأنك تسمع صريرهما الواهن، ركبتين رثتين. تنزل عن عربتك العتيقة وترمي إلى « أبو صابر» بحزمة صغيرة من البرسيم، ترمي بعض تعبك وتحتسي الشاي مع الحليب من فم الدلة، تآكل تصفيحها الخارجي. لا تكترث له كما لا تكترث بتعب ظهرك المثقل بالشقاء.

وها هو ذا يوم آخَر عند ضفافها، تغترف أحشاؤها البيضاء بيديك المتشققتين. الملح متوفر هنا ولا أحد ينافسك عليه وليس ثمة أحد يحسدك على هذه الثروة! رغم انك ذات يوم كنت تحلم بمحل صغير تبيع فيه الملح بدل هذا الشقاء. العمر مضى والحلم أصبح باليًا عجوزًا يشابهك في العناء وها أنت هنا تجاهد متقطع الأنفاس. تراقب المدينة وتسفح ذاكرتك المتجعدة ما كان من أمسك، تتذكر.. عنفوان شبابك. يوم زج بك إلى حر المزارع وعذاب الاستعباد والجوع، دفعك إلى أكل حبة بطيخ، حبة واحدة صغيرة لا غير والمزرعة كبيرة وخيرها كثير. آخَر لقمة لإسكات الجوع الكافر، ونزل عليك بثقل كرشه يُلهب جلدك (بكدف)[٤] ضربًا قاسيًا بلا رحمة. ولا أحد يُغيثك منه وروحك تكاد تفر من ضلوعك اليابسة قد احتطب منها الفقر والوجع..لا يُحتمل، فغازلت أشعة الشمس المحرقة كما الضرب نصل السكين!

يدك ملوثة بالدم، هذا البدين يعاين فخذه النازف ويصرخ متوحشًا كما

٤ -تحولت هذه القصة إلى فيلم قصير ، من إخراج محمد إبراهيم وسيناريو الراحل فريد رمضان.

الثور وأنت تفر من القرية خائفاً مثل النبي موسى عليه السلام. بعيدًا يأخذك الخوف، بعيدًا عليك أن تبقى وما سواها غير هذه المدينة، تأويك حافي القدمين في دروب الغربة، مدينة تولد في تنور الهجير. طابوق وإسمنت وعمال غرباء من وراء البحار وكتل حديدية ضخمة تنفث الدخان وتطحن الأرض. مدهوشاً تراقب قوتها، تتذكر صوته محذرًا يأتيك من مكان ما. كان (عبد الجبار) وهو الذي أصبح صديقك فيما بعد.. يمتطي صهوة هذه الآلة الضخمة ويحذرك من خطورة موقع العمل.

وترى ابتسامته الطيبة من سحنة سمراء ولهجة طرية، تأكدت فيما بعد أنها لهجة أهل جزيرة المحرق. ومن أنت؟ يسألك ولا تزال ابتسامته مرحبة بغربتك. وماذا عساك تقول؟ بضع كلمات استحيت من كذبها، لكن على الأقل كسبت وقتئذ ود صديق رائع، شاركته صحون العدس وعلب السجائر والعمل، هنا هي ذي المدينة التي حفرت طرقاتها وشيدت أسوارها، لا تزال تتوسع كالوباء.

الشاي مع الحليب بارد وبلا طعم لا بأس من شربه. تعاود النظر إلى البحيرة، فصلوها عن جسد البحر يوم تم تشييد المدينة وتُرك المكان هكذا م،نذُ ذاك الوقت، صديقك صاحب الوحش الحديدي كما كنت تسميه، كان يقول: بأن مساحة البحيرة منطقة طينية غير مرغوبة في مخطط الدفن. يا لهذه البحيرة التي تصر على الحياة، إنها تعيش وتتنفس وتزورها طيور مهاجرة آتية من السماء وها أنت عند ضفافها متراكمة بالملح. هل ينفعك قضاء نصف النهار تنتشل بياضك لتعود للبيت وتكدسه هناك؟

ها أنت تجمعه بالمعول ثقيلاً من الضفة ومصفرًا، لم تعد الناس كما السابق تشتريه منك، من يعوضك نهارات التعب؟ حمارك في حومة نهيقه يجبر فلول الطيور على مغادرة المكان. تتوقف بعض هواجسك عن رقصها. لكن السؤال هو ذات السؤال مثل كل يوم، تحاول الهروب من إحراجه وتراوغ الوقت فقط ، تسأل نفسك عن الوجهة التي ستقتحم دروبها، تبحث عمّن يشتري ملحك.

تشخص ببصرك إليها، لحظة تأمل أو حُلم، أمنية ربما، المهم أنك قررت هذا الآن. شِوال واحد من الملح ترفعه بصعوبة، توجه عربتك نحوها، لا يبدو أن شارعها الإسفلتي طويلاً على عزيمتك التي لا تُكسر، تمضي إلى هناك حيث رزقك. لا يعلم موضع الرزق إلا الله تعالى، تتوكل عليه وتدور عجلات عربتك متوقعاً أن .. المهم أن تبلغها وتسترزق من ملحك. ستبيعه وتجني بعض المال، ستفعل. أصبحت ممصوص العافية، عظام وجنتيك بارزة وكذا منكبيك، في البيت زوجة ساخطة من فقرك وابنة تمارس صبرها الطيب، تخبرك عن كثرة فئران البيت وتكدس الملح بلا فائدة.

بلا فائدة يذهب تعبك إلى الجيران، ملح مجاني توزعه زوجتك هنا وهناك، بلا فائدة يذوب ولا يذوب هذا الشقاء في دائرة الفراغ.. ما كل هذا التعب؟ الطريق تغيم في عينيك، تغيم الرؤيا فلا تبصر إلا سرابات متراقصة في العدم ونَفَسكَ يكاد يتوقف! وهذه عربات بلا عدد تنطلق مثل سهام النَّار تهب إسفلت الشارع. تبتعد عنه، محاولاً استعادة ما حولك. مالذي جعل المدينة تنأى بعيدًا لتلاصق الأفق هكذا؟ تنظر إليها من بعيد. هل أنت واهم أم ماذا؟ ولِمَ تراه الآن يبرز فجأة بإزاره الأخضر يترنح في ماء الجدول والسكين مغروزة في لحمه، ينزف بشدة ويسقي الزرع! يسقي غضب الأمس .. النفس الحائر الخائر، اللعنة عليه. وتستغفر ربك في حومة العذاب، شمس متوحشة ترمي شواظها الصيفي، يحتويك الإعياء ويتآكلك الخوف.

أتخاف الموت؟! البيت بعيد، شلل يضرب عصيه في ظهرك العجوز.. أنت هالك، (عزرائيل) يتسلى بورقتك يؤرجحها كيفما اتفق، يمارس معك مزحة مرعبة! قد تتلاشى هذه الساعة، فما فائدة ما تفعل؟ أتظن أنك تنجح؟ حين تدخل إلى شوارعها لن تجد إلا أناساً متأنقين يتفرجون عليك، مرهقاً صوتك المبحوح تعلن سلعة رخيصة. ملح مصفر مخلوط بالشوائب تحاول بيعه. آه ما أكبر جحودها، أنيقة في أثوابها متباهية، متغطرسة كأنها تريد طردك أو لا ترحب بك

إطلاقاً، تراقب رثاثتك هذه المدينة. لا، هذا يأس يزينه الشيطان، خزاك الله يا شيطان.

وها خوفك وما تهجس قريب! شرطي مرور يقترب بسيارته، يحاذي عربتك ويتفقد بنظراته المتقززة ما أنت عليه. تستعيد بعض أنفاسك وتتحسن، ترمقه متوقعاً أن يشتري منك..

-عندي ملح، تفضل!

متقزز ويحجب أنفه بمنديل ورقي، ربما لاحظ الروث. مخلفات الحمار المتعب، فالرائحة بالفعل كريهة وخانقة، ربما أنت لا تعطي الأمر أهميته لاعتيادك على رفقة العمل مع هذه البهيمة. لكن أهل المدن غير ذلك، فما أنت بنظرهم إلا رجل من عصر بائد، يتنقل بواسطة نقل بدائية، مكانها في براويز التحنيط بالمتاحف! ثم كررت عليه كلامك..

-عندي ملح أتشتري؟

-أنت تنقل الملح من البحيرة صح؟

-الركض وراء الرزق يا ولدي، الله كريم.

-عندك رخصة قانونية؟

.....-

-اسمع، لا تدخل المدينة، مفهوم.

-الناس تحتاج الملح.

-هذه المدينة بالذات لا تشتري الملح!

-مدينة لا تشتري الملح! أتسخر من شيبتي، سامحك الله.

-أمنعك بقوة القانون أتفهم، يكفي أنك تعمل بدون تصريح.

صرامة واضحة لا تقبل التفسير ولا تتحمل المغامرة، وقلمه يهتز بعصبية بين أصابعه، يستعد لتحرير مخالفة، أكيد لن يتردد، وسيبررها بأي سبب كان. العسكر دائماً تفوح من لهجتهم الغطرسة والتعالي الفارغ.

-ما بك تحدق فيَّ هكذا، ألم تسمعني يا عجوز؟

-نعم إن شاء الله.

استدار بسيارته وانطلق في الشارع. وأنت هنا طعامًا للشمس، أتعود للبيت خائب الرجاء خائب الرجاء وخاوي الجيب؟ حسنًا.. يخطىء هذا الشرطي إن ظن لوهلة أنك خفت منه وارتدعت. عينيه المتواريتين خلف نظارته الشمسية المغرورة، هه لا شيء، لن تكون محرمة عليك وستدخلها. أيستقرفون منظرك؟ أحقًا لا يريدون ملحك؟ مصفر ومتسخ لا يشتريه أحد.. ما بالهم؟ إنه ملح والحياة بدونه لا طعم لها، الملح ألن يطهرهم ويبريء مدينتهم من أسقامها؟ تحدق نحوها وتهجس بداخلك أمرًا ما.

لا شيء سواه، تمامًا هذا هو المطلوب.. تحدى صعوبة اللحظة وحطم مجاديف الخوف القابع بين ضلوعك. المدينة العاصية تحتاج ملحك، يهبط فوق أراضيها كندف الثلج تملأ الأماكن بالطهارة، لن يشتريه أحد؟ لا يهم بعد الآن، ما دام ذلك الشرطي يتحداك بقوانينه. لسوف تعم الطهارة على هذه المدينة، ولسوف تكافئك الناس، هي مهمتك التي تنقذ المكان والزمان. مهمة مقدسة لا تعرف الفشل، ستنثر الملح فوق بيوتها ومدارسها وشوارعها وأرصفتها، حتى النفوس ستتنفس ملحك وتشفى من طمعها وعصيانها وخبثها ودنائتها. هذه المدينة ستعود كنقاء أمسها، سنثر ما عندك في كل شبر، وتتجول مثل (نبيّ) يهدي قومه قبل الطوفان.

تسكع في البرامكة[٥]

لا أرى البرامكة فوق ظهور الخيل يجوبون شوارع دمشق ويتفقدون أحوال الرعية والباعة والسوق العتيقة وكذا جواري للبيع من فارس كأنهن زبد الصابون الدمشقي الزكي. ما من شيء مُلفت في إمتداد الشارع غير اللافتة الزرقاء محاطة بعمودين متلازمين وصفيحة معدنية ملوثة بفضلات العصافير مكتوب عليها «البرامكة» وسهم غليظ يشير ناحية الشمال يحدق في وجه جبل قاسيون الراقد بوقاره المعهود نصف حضنه إخضرار وخرسانة وبشر.

تماماً كما تركتها العام الماضي، تعج بالضجيج والدخان. « دمشق « حسناوات الحي الجامعي يحتضن كتبهن قرب تجمعات « السرفيس « محطات بائسة لهذه الحافلات الصغيرة المكتظة بالبشر. لي صديق هنا في هذا الشارع. سيارة أجرة قديمة تحاذي الرصيف، يدعوني سائقها، وبالفعل أقنعتني كلماته اللطيفة بالتخلي عن فكرة التسكع الصباحي وملاحقة الجميلات، تركتهن.. اعتقد لا فائدة مكتسبة من هذا العبث الصباحي و..

قطع عليَّ حبل أفكاري المثرثرة ودعاني إلى علبة سكائره الرخيصة فبادلته إبتسامته الودودة وأخذت سيكارة واحدة، عرض عليَّ إشعالها لكني ادعيت كذباً بتدخينها لاحقاً. تبسم ثانيةً ثم قال:

-أول مرة في دمشق أستاذ؟

-المرة السادسة.

-ألف مرحبا وكيف تراها؟

-مكتضة بالعراقيين الفارين من الحرب والموت والإحتلال الأمريكي.

٥- حسين عبد الرحمن الزين .. صباحات البرامكة رائعةً بكَ وبفراشات الدكان الصغير.

-نسيت أسألك، تذهب إلى مكان معين؟

-أشعر بالملل و.. قلبي حزين!

-المسألة بسيطة، أترك الموضوع لي.

غمز بعينه اليمنى ودخان سيكارته يضبب وجهه المليء بندوب الجدري وانحرف إلى الجهة الشرقية من المدينة قاصداً جهة غير معلومة..

-أنت تخرج من البرامكة، إلى أين أ....

-حقاً العربي لا يثق في العربي، لا تؤاخذني!

-لا.. ولكن الـ...

-أنت ضيفنا ولا تهتم .. حُزن قلبك مسؤوليتنا ونحن نداويه، أتفقنا؟

اكتفيت بابتسامة مصطنعة نصفها قلق والنصف الآخَر خائف تحضرني واقعة الاعتداء التي تمت في المدينة وكان ضحيتها شاب خليجي اقتحمت شقته وضُرب وسُرقت محفظته، الحادثة من شهر فقط قبل موعد سفري.

قطع عليَّ ثانيةً شرودي وأشعل سيكارة جديدة وهو يهرش لحيته الفوضوية اللامبالية، قال:

-وإن لزم الأمر، نقوم بواجبك حتى آخَر لحظة ولن تنسانا.

-.....

-يعني لا تهتم، نحن عرب والكرم طبعنا، صحيح وفريال ستتكفل بالموضوع وستشكرني بكل تأكيد.

-من تكون فـ...

أوقف السيارة وسط زقاق صغير، سحب عتلة كبح السيارة وخاطبني مستعجلاً:

-وصلنا بيتها، لحظة عن إذنك، لحظة..

ترك السيارة بشكل فوضوي ونزل مسرعاً، دخل إلى أحد البيوت الكالحة القديمة وسط حي فقير تنتشر فوق أسطحه أطباق الالتقاط الفضائية وتفوح من المكان روائح غريبة وأطفال بعضهم حُفاة يبحلقون بي بنظرات مستعطفة متسولة.

حضر السائق وشرع يفرقهم بصياحه المهتاج. ابتسامته بعد ذلك بدت أكثر تصنعاً وحاولت أفهم ما يدور حولي، فسألته:

-لِمَ أنا هنا؟!

هز رأسه، فقط دعاني للدخول، كانت جدران البيت مهترئة الطلاء، ثم دخلت إلى حجرة بها سرير حديدي وكنبة تتسع لشخصين وشماعة ملابس مائلة على الجدار الذي شاركته صمته المترقب! لو أنهُ يتكلم لكنت استفهمت منه ما يجري وإنزاحت غمامة القلق المتراكم. دار في رأسي أن هذا المكان البائس لا يمكن أن يكون وجهة سياحية نظيفة، فلن تجد هنا سوق تاريخية أو حمام دمشقي قديم أو شيء للبيع.. شيء للبيع.

نعم نعم، السائق عنده بضاعة ويظنني (.....) أوه ما أحلاها من ورطة؛ وفريال قد تكون حبوب مخدرة وليست امرأة كما يدعي. كلما تكلم الرجل غمز بعينه اليمنى، تزعجني وتوترني متلازمته هذه، هذا سبب كاف ليجعلني أخاف، تركني في حمى العشر دقائق لحد الآن، ولا أدري ما يُبيت لي. وها أنا متأنق بغرور، هيئتي تغري المارة وتعكس صورة ثرائي المزعوم، ما أسخفني.

كيف أفر من هكذا ورطة، سكون الحجرة يستفز أعصابي. فيما مضى كنت أدعي معرفة شوارع المدينة وأزقتها لكثرة ترددي على دمشق، الآن تنهار أكاذيبي الغبية التي صدقتها ويملأ غبارها أنفي وأعجز عن رؤية ما حولي لفرط ثقتي بنفسي. حسناً، الغلبة لمن يتصرف سريعاً، طوفان القلق سيجتاحني وها أنا خانعاً أنتظر المجهول، لا. الباب مفتوح والهرب أقصر السبل للنجاة، فلست أضمن شيء هنا. نهضت وأقتربت من الباب وفجأة دخل عليَّ وهو يحمل صينية فواكه وهتف بلطف..

-يا فريال بسرعة بسرعة لا ينزعج ضيفنا.

ترك الصينية أمامي وذهب. شرعت أبحث عن تفسير مقنع لما يحدث، بسرعة محاولاً فهم الغموض المتراكم حولي .. لا شيء غيرها، فريال إذاً امرأة قطة لعوب من جنس «النّوَر / الغجر « الذين تجدهم يتسولون على أبواب ضريح السيدة

زينب (ع) ونابشي أكوام القمامة وراقصات ملاهي ومطاعم الشام. بإمكاني إذاً في هذه الحالة التصرف، إذا كان الأمر كذلك، فسكن قلقي قليلاً وإذ بي أتكهرب في مكاني، قفزت الكلمات بلا مقدمات، بلا تفكير، وشرار فتنتها حولي يطير..

-أنتِ فريال؟!

هزت رأسها، أهي حقاً من العالم البشري بهذه القامة الهيفاء والوجه القمري الأبيض والصدر اللؤلؤي الشهي صاعد وهابط يجرفني معه بحمى النشوة والفرح، قالت:

-أهلاً بك شرفتنا وإن شاء الله نقدر على واجبك.

لم أقل شيء وأنا لا أزال مضطرب النظرات، بصدق فجمالها يخجلني حقاً ولا يمكن لامرأة مثلها أن تكون (.....) فتيات الرصيف في مدن العالم نزقات وسوقيات، نظراتهن شائهة وشريرات. هذه الفاتنة قالب حلوى بالكريمة، كنافة شامية لذيذة بالسمن البلدي، لن ألبث عندها دقائق حتى أذوب من توهج جمالها يكاد يفقدني صوابي. قد حضر السائق، لم أتعرف عليه بعد حتى اشكره على الجلسة. صوتها الرقيق غسل قلقي الآن وتلك الظلمة التي تعثرت في دهاليزها على غير هدى ما قبل سفري، تضمحل وتزول عن روحي. هواء منعش يتسرب من نافذة الحجرة والحلوة تغني، تلعب على أوتار عودها بمهارة احترافية « بتونس بيك وأنتَ معايا « .

جلسة رائقة، دقات قلبي تعزف فرحها من جديد وقد نسيت حسناوات دمشق، نسيت البرامكة، نسيت الأطفال المساكين، باعة القهوة والشاي على الأرصفة، وكذا أقدام الناس المتعبين. هذه أروع فرصة تسكع قادتني إلى هنا. أروع فرصة وكنت مفتوناً بعينيها أراقب حلواي اللذيذة، يا لفواكه دمشق وياسمينها، تتسرب رائحته وتتحد مع دقات قلبي.. أفكر ثانيةً بتكرار الزيارة، سأكرم السائق، وها أنا أتعمق وأغرق ولا أنعتق من عينيها « فريال « أنثاي الجميلة حيث مددتُ يدي، ناولتني يدها فطبعتُ قبلة على ملمس بشرتها الرقيقة المعطرة، سأتذكر هذا طويلاً حتى آخَر نفس في عمري.

ثمن

-الوضع صعب، هذا غير معقول.

رئيس التحرير يشبك أصابع كفيه وهو يحدق في الجريدة ضمن عأمود صحافي مُطتوق بحزام ناري باللون الأحمر ينذر بالانفجار.

طرقات خفيفة على الباب. يدخل بقامته الفارعة، في الخمسين، في بذلة لونها صريح وبسيطة التفاصيل بدون ربطة عنق. يرحب به رئيس التحرير..

-تفضل أبو عادل.

-شكراً ، خيراً إن شاء الله؟

-بلا مقدمات.. لهجتك حادة ضد الحكومة، أبو عادل، خفف اللعب.

-.....

-ما ردك؟ أرجوك، الموقف لا يحتمل ويجب أن ...

-لستُ ملزماً بمجاملة اللصوص المتأنقين، الكلمة الحُرة مسؤولية هكذا تعود قرائي.

نهض رئيس التحرير من على مقعده وواجه النافذة فقال:

-وأنا لا أستطيع التفرج على إغلاق الجريدة الوشيك بسببك، الحكومة لا تلعب، حربك لا تعنيني.

-أما أنا فأستطيع مهما كانت الخسائر، لن أبيع سمعتي ومبادئي.

تناول ورقة بيضاء وملأها بسطور سريعة وترك أسفلها توقيعه وقال بهدوء..

-لست مضطراً لتقاتل معي أو تخرب أكل عيشك، أنا أستقيل.

حصار العتمة

أحببت الأماكن المنعزلة، ربما لأن ذاتي تقطن صندوقاً من الوساوس والأوهام، كنت أحاول الهرب منها. لكن لا مهرب من حظي العاثر، يالها من زوجة نكدية مزعجة، هنا سأرتاح، الهرب منها نعمة.

لحظة الصفاء والهدوء تنزل برداً وسلاماً على النفس، وهذا ليل من الألق على رمال الشاطىء البعيد. هنأت نفسي على اختيار المكان، هدوء يشبه البقاء في صحراء قاحلة وبعيداً عن صخب المدينة، حيث اختلي بنفسي كي انظفها من رواسب التوتر، كما ينصح الأطباء النفسانيين.

تركت ورائي جبالاً من الهواجس، أوقفت محرك السيارة، هواء صيفي عليل يهب ويشعرني بالسعادة وبذكريات كثيرة تستيقظ في داخلي. موج البحر يتلاطم أمامي، هل أستطيع رؤية لونه؟ لما لا أجرب قوة مصابيح سيارتي كيما أقهر ظلمة الأمواج؟ مرة ومرتين وثلاث، طريفة هذه اللعبة والشاطىء جميل حتى بعد مرور أكثر من نصف ساعة.

أعود لتأمل جو السكينة هذا فلا شيء يدعو للقلق، أستطيع التعري من ملابسي لو أردت، لكن فجأة ظهرت على الشارع سيارة شرطة جاءت من الخلف، ترجل منها شرطي ضخم الجثة، فتح ضوء مصباحه في دهشة وجهي موجهاً سلاحه نحوي:

-ماذا تفعل هنا يا سيد؟

-لا شيء ، جلسة منفردة لا أعتقد إنها تخالف القانون في شيء.

-سلوكك مُريب، سيارتك تواجه البحر واضواؤها تومض بشكل متقطع، ماذا لديك؟!

-عزيزي أكيد الموضوع ...

-الموضوع واضح، أنت لم تأتي هنا عبثاً، تعمل مع عصابات التهريب، دورية خفر السواحل في البحر رصدتك، اسكُت وأرفع يديك حالاً.

جرح النافذة

قررت الاقتراب من النافذة. أربعة اشهر مضت على الهوة السحيقة التي وقعت ضحية ظلامها. تقترب من النافذة وتمد يدها المترددة. لا، لا مجرد فتحا الآن استحضار فاجع للذكرى، يلجمها الخوف ويسيطر عليها. كم هي تكره النوافذ، هذه الكوة قادرة على أن تفتح جروحاً بداخلها، مجبرةً تستعيد التفاصيل هذه اللحظة حين شرّعتها وتركت نور الشمس يدخل.

ها تركت الجرح يتسع، الذكرى تنفجر الآن.. كان عصياً على الضبط، مشاكس رائع، ثمرة العش المبارك تحت سماء الله. يلعب ويرتع وأحياناً يحطم الأشياء، لكنها تسامحه. وها هو قد غافلها وخرج متسللاً ذات ظهيرة « أوغسطية « حارقة ووحدها النافذة المفتوحة كانت تحدق في انفلات الصرخة المفزوعة..

كيف خرج إلى الشارع؟ الكرة تدحرجت على الإسفلت، قد نجا جسدها البلاستيكي من العجلات المجنونة، أما هو فعلى الأرض يسقط كما عصفور يحلق طيف روحه نحو السماء وهي تصرخ..

-خالد، خالد، خالد، خـ..

سمعها، أمسك خوفها قبل أن تنهار أكثر ككل مرة وتفقد وعيها، ضمها إلى صدره وأخذ يستعيذ من الشيطان الرجيم، محاولاً مواساتها بلا فائدة. لا يستطيع إلا الوقوع في مشاعر الخسارة، تائهاً في غابات الأسمنت التي سرقت طفله منه. أغلق النافذة علهُ يرتق الجرح الطري ويستريح في النسيان، وهي هنا لا زالت في ألم حزنها تراقب النافذة وتحتضن صورة عصفورها الصغير، حتماً لا يعود من الغياب.

خبيثة

لأنها نشأة في الشوارع الخلفية الوسخة من أسفل البنايات الأسمنتية العملاقة، لم يكترث بها أحد. كانت تتسع كل يوم بضع سنتيمترات، تفتح فمها الكبير المجرم. يُقال إنها تصدر أبخرة غريبة تثير شهية الرجال والنساء، يعبثون بأعضائهم التناسلية أو يتحسسون جيوبهم، لا يهم..

فالكثيرين رموا بأنفسهم في ظلامها، موظفون يحملون ملفاتهم ومسؤولون بحقائبهم الديبلوماسية وبذلاتهم الأنيقة، وشعراء صدحوا بقصائد النفاق عتند حافتها وتلوثوا و.. و...

حتى الزبال والمتسول جذبته تلك الأبخرة الغريبة. لا تزال تطلق في هواء المدينة أبخرتها الخبيثة، عشش الصفيح زالت وحلت مكانها مُدن أسمنتية من ناطحات سحاب ومصارف ونقابات الفنانين والمسارح والمكتبات والمساجد والجمعيات السياسية.. الحفرة مكانها لا تزال تبتلع الناس، تسيطر على الرأي العام وتخدر الأشياء ولا أحد يكترث، فقط « هو « ..

أصر على تحدي قانون إطلاق سراحه بعد اعتقاله ستة اشهر لاعترافه وإصراره على مواقفه الثقافية أمام هيئة المحكمة، بأنها حفرة خبيثة وسكوت السلطة عنها تواطىء ضد الشفافية والعدل وتشجيعاً للظلم. تسمر عند فوهتها الضخمة، حافي القدمين، ثم انظم إليه جمعٌ من الحفاة يرفعون لافتات الاحتجاج وأرغفة الخبز وصيحات الشجب والإستنكار. وصلت الشرطة واعتقلته ضمن الجموع، بتهمة التحريض وتزعم مظاهرة غير مرخصة، تشوه وجه البلد الحضاري. كان يصرخ من سيارة الشرطة بأعلى صوته في غابة الفراغ والأسمنت والعبث.. « ادفنوها قبل أن يدفنكم غضب الله، ادفنوها يا ناس « . الناس في الشارع تضحك!

دباسة ورق

السيكارة المشتعلة تنتقل من يد إلى أخرى. وصلته في الدور، مج منها نفساً طويلاً، تفرق الدخان من منخريه فقال:

-تصور، أنا أطرف لص في مدينة الأسمنت!

رجل أعور يهرش لحيته الشوكية رد قائلاً:

-لا أحد بريء، وما هي التهمة يا أخي؟

عاد ومج آخَر نفس منها ودعسها على الأرضية الكونكريتية الرطبة وقال:

-حكايتي، نسيت دباسة الورق في حقيبتي وخرجت مستعجلاً نهاية الدوام، وحدث أن وقعت الحقيبة أمام حارس أمن الوزارة..

فقال أحدهم في اهتمام حماسي:

-نعم واصل كلامك، وبعدها؟

-أبداً، الحارس (المتصيد) كَتَبَ عني تقرير وتحولت في ظرف أربع وعشرين ساعة إلى لص يسرق المال العام!

-مهزلة، وماذا ستفعل؟

-لا أنوي انتظار محاكمتي في هذا البلد التعس، سلفوني سيكارة واحدة أدخنها لآخر مرة، ولينقض أحدكم عليَّ ويكتم أنفاسي!

قام يصرخ مهتاجاً بالقرب من باب السجن وينطح الجدار برأسه حتى نزف دمه ثم سقط فاقداً وعيه.

رحلة المؤذّن في سطور

أحمد محمد محسن حسن المؤذّن / مواليد المحرق 1973

خريج ثانوية عامة « من طلاب مدرسة مدينة عيسى الثانوية للبنين «

يكتب في الصحافة المحلية والعربية.

•صدرت له ..

•أنثى لا تحب المطر- قصص ، إدارة الثقافة والفنون ، وزارة الإعلام 2003

• من غابات الإسمنت – قصص – إصدار خاص / دار فراديس للنشر و التوزيع – البحرين 2006م .

•رجل للبيع – قصص – دار نينوى للدراسات و النشر والتوزيع / دمشق 2009م .

•وقت للخراب القادم – رواية – دار نينوى للدراسات و النشر و التوزيع / دمشق 2009م .

•وجوه متورطة – قصص – مركز جد حفص الثقافي / دار فراديس للنشر و التوزيع 2012م .

•وقت للخراب القادم - رواية / الطبعة الثانية، دار دوّن للنشر والتوزيع، القاهرة 2013م .

•الركض في شهوة النار – قصص – الطبعة الأولى 2015 – أسرة الأدباء و الكتاب – البحرين / هيئة شؤون الإعلام .

•شهية السرد الخليجي - دراسات - مركز كرزكان الثقافي و الرياضي 2016 م دار فراديس للنشر والتوزيع / مملكة البحرين .

•سِر البانوش المهجور - رواية .. الطبعة الأولى 2020 دار ومكتبة رؤى للنشر - مملكة البحرين.

•وقت للخراب القادم - رواية .. الطبعة الثالثة / دار الدراويش للنشر والترجمة - كاوفبويرن - ألمانيا 2021

•اعترافات البيدق الأخير - رواية .. الطبعة الأولى 2021 - مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع / العراق.

•أنتِ الحُزن الأول - شعر .. الطبعة الثانية 2021 دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر.

•الركض في شهوة النّار - مجموعة قصصية ، الطبعة الثانية 2022 مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع / العراق.

•وترقصين - مجموعة قصصية « كتاب إلكتروني « دار بوفار للنشر والتوزيع / 2022 - مصر.

•وجوه متورطة - مجموعة قصصية ، الطبعة الثانية – 2023 دار ديوان العرب للنشر والتوزيع / مصر.

•أين أختفى الأرنب بسبوس؟! قصة للأطفال « كتاب إلكتروني « مكتب خدمات سرديات عربية « 2023

•العادات والتقاليد الشعبية بين الرمز والدلالة / كتاب مشترك ، أمينة الفردان – أحمد المؤذن / 2023 دار الدراويش - ألمانيا.

•فزاعة بوجه الريح .. كاكاشي / رواية « كتاب إلكتروني « دار بسمة للنشر الإلكتروني / المغرب ، بالشراكة مع مكتب خدمات سرديات عربية 2023م.

•جائزة المركز الثالث في مسابقة نادي العروبة الثقافية / فرع القصة القصيرة عام 2001 م .

•جائزة التميز للكتاب ، المركز الثالث في حقل القصة القصيرة عن مجموعة - من غابات الأسمنت / 2 يوليو 2007 م - وزارة الإعلام – مملكة البحرين .

•جائزة جمعية البحرين لتنظيم و رعاية الأسرة ، المركز الثاني عن قصة .. صحراء التلاشي ، عام 1998 م .

•جائزة « الصدى « للمبدعين - الدورة الرابعة (2005 / 2006 م) عن مجموعة - رجل للبيع / المركز الرابع - دبي / الإمارات العربية المتحدة .

محطات و إنجازات على مستوى القصة والأعمال القادمة :

•ضمن فعاليات الملتقى القصصي العاشر في مدينة الثورة بالرقة / الجمهورية العربية السورية - نوفمبر 2009 م .

•المشاركة في تحكيم المسابقات التربوية ، « القصة القصيرة « بترشيح من قبل المشاركة وزارة التربية و التعليم ، للعام الدراسي (2007 / 2008 م) .

•إقامة العديد من الأمسيات القصصية المنفردة و الثنائية في العديد من العواصم العربية (الكويت ، عمّان ، الدمام ، عُمان ، الشارقة ، حلب ، العراق).

ولهُ إنجازات أخرى على صعيد الساحة الثقافية المحلية والعربية ضمن حراكه الثقافي.

تحت الطبع .. رواية / ما بعد غيبوبة الضبع - دائرة الثقافة / الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

شيءٌ ما مثقوب / مجموعة قصصية.

رجل للبيع / مجموعة قصصية - الطبعة الثانية / الدراويش للنشر والترجمة - كاوفبويرن / ألمانيا.

تجليات البُعد الإنساني في الرواية العربية .

لا قناع لي بينهم / رواية .

الحكي الشعبي « القروي « / قراءات تحليلية لمضامين الحكايات الشعبية المروية على لسان نساء كرزكان .. أمينة الفردان - أحمَد المُؤذّن.

قائمة المحتويات

حُفرة 4
ذات صباح 8
حُلم مقطوع الرأس ! 12
مصرع مومورِيا 16
موسم الهجرة 22
عودة 27
شياطين في الجنة! 31
أوقات طيبة في الجحيم! 35
اجراءات شكلية 38
الركض في شهوة النَّار 44
في زمن الرماد ..حقيبة 49
مدينة لا تشتري الملح ؟! 53
تسكع في البرامكة 58
ثمن 62
حِصار العتمة 63
جرح النافذة 64
خبيثة 65
دباسة ورق 66
رحلة المُؤذّن في سطور 67

للتواصل مع المؤلف :

فيس بوك/ أحمَد المُؤذّن

بريد إلكتروني:

almuathen73@gmail.com